

وَدُنْيَا عَلِمْنَا

مَارِي مَادَلِين دَارِي

# مَعْرِفَةُ الذَّاتِ

تَرْجَمَة

نَسِيم نَصْر

دَرْسُورَاتُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ







معرفة الذات



ماري مادلين داقي

# مَعْرِفَةُ الذَّاتِ

ترجمة  
نسليم نصر

منهورات عويحات  
بيروت - بيارين

جميع حقوق الطبع العربية في العالم محفوظة لدار  
منشورات عويدات  
بيروت - باريس  
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية  
Presses Universitaires de France

الطبعة الثالثة ١٩٨٣



## مقدمة الطبعة الثانية

في هذه الطبعة الثانية من كتاب معرفة الذات ، تبدو وجهة النظر ، في الفصول الجديدة ، مختلفة ، لأن المسائل عُولجت في شكل أكثر ذاتية . وقد كان لاختلافنا الى المناسك المسيحية وغير المسيحية والى مدارس الحكمة ، خلال السنوات الأربع الفاصلة بين الطبعتين ، بعض الاختبار . ولكنّه اختبار "نسي" ، إذ كان يجب ان يعيش المُختَبِر في الداخل لا في الخارج ، لكي تتوفر له معرفة حقيقية . ومع ذلك ، فللنظرة الملقاة من الخارج أفضلية بقاءها دائماً جديدة وحرّة . فهي تتجنب شراك العادة ووطأة المؤثرات . ولكن هذه الاحتكاكات المختلفة لم تفعل أكثر من أنّها أكثرت ما كان يلهمه حدس سابق .

لقد كان التحفظ والتهيب ، سابقاً ، بالنسبة الى موضوع يُعتبر أساسياً ، يعطيان هدفنا تعبيراً خارجياً . فليس من المُستحسن ان يتحدّث الانسان عن توجيه نهجه الخاص . لذا نعود الى التذكير المتكرر الذي قام به مؤلفون أولوا رسالتنا

هذه ثقتهم . قالوا : لا بد من ان تأتي ساعة " يجد فيها الانسان نفسه مُجبراً على ان يُعبّر عن تفكيره بدائمة " ، متحملاً مسؤولية ما يكتب ، مع علمه بجهله الخاص .

يقدر ما تنمو المعرفة وتحاول إثبات صحتها ، يقدر ما تتجمد الشكوك التي كانت في ما مضى متدافعة . وهي ذي المسألة الأساسية تطرح نفسها : هل يستطيع الانسان التوصل الى معرفة ذاته ؟ إن تحقيق هذا التوصل مضمون بالنسبة الى بعض الأشخاص المميزين . أما الأكثرية فليس لها غير الاكتفاء باقتراب نسي إليها . وفي هذا ما يكفي لأن نفهم ان معرفة الذات هي المحاولة الوحيدة التي تستحق محاولة سلوكها .

إن ندرة انجاز كامل ، تتأتى عن عجز في سماحة العطاء أكثر مما تتأتى عن تقصير في فقدان الحرية الشخصية . وفي منعرج كهذا ، يجب ان نفتش مختارين عن رفاق الطريق ؛ فالطريق دائماً منعزلة . لذلك يجب ان نجد مرشداً يقود خطانا في طمانينة عندما نجتاز المواقف المحفوفة بالمخاطر ؛ ولكن المرشدين نادرون وقلتها يتوفر لنا اعتمادهم . وكثيراً ما يكون من الأنسب الاقتناع بأن نبدأ اشتغالنا في البحث ومتابعة سيرنا فيه ، في وحدة تتفاوت شدتها بين حين وآخر ، عارفين

ان المرشد الأفضل موجودٌ في قلب كلِّ باحث . وهذا ما يفعله .  
العصفور ، فإن ما ان يستكمل اندفاعه جناحيه ، حتى يترك  
عشه ساعياً بنفسه الى تحصيل قوته .

وعندما تضعف ، الأنا ، التي يطهرها ويحرّرها انعدام  
الحاجات ، يخرج الانسان من ديجور ذاته وسجنه ، بحشاً عن  
معرفة الذات . ولكن سرعان ما يترجّع في بُعدٍ آخر لا  
ازدواجية فيه . وفي إغراء الوحدة ، التي عرف أنها ضوءه  
ونظامه ، ينطلق في جمال الكون الذي يُعينه في تحليقه نحو  
التألك . ومن الآن فصاعداً ، لن تعود لتظنه سيطرةً تبسّد  
انتباهه ذهنة فيخاطر دائماً في ان يبتدىء حواراً . هكذا ،  
يصبح هو الحب ، محباً ومحبوباً . فيمكن ان يُعصّ بالحاجة  
الى العزلة والسكوت ليتذوق الفرح ، لأنه يعرف ان العمل  
عاصٍ دائماً بفعل حدوده . من جهة أخرى ، ثمة الذين عندما  
جوعٌ الى المطلق ؛ أمام هؤلاء يستطيع الانسان ان يتلقّى  
شهادةً فيصف ، ان لم نقل طريقه المرسومة ، فلا أقلّ من تنوير  
بتوجيهه . وفي هذه الحال ، يحرّكه إشفاقٌ لا حدود له .

هذه هي المواضيع المختلفة التي سنتناولها في هذه الطبعة  
الثانية . وسنتناول كذلك البعد العقلي المحض . وسواءً أردنا

هذا أم لم تُرده ، فإنه بعدُ صعب النسيان . إذ لا بدّ من يوم  
يصطدم فيه الإنسانُ نفسه به . من هنا ، يجب ان ينظر ،  
بصورة جديدة ، متفكّنة من الرقابة ، والمواعيد التي ورثها  
بوصفها ارث سلالة ، ودينه ، وثمره التوجيهات التي تلقّاها  
في جدائته .

كلّ كائن يملك شمساً داخلية في ذاته ، والمهمّة الرئيسيّة هي  
أن يكتشفها ، وأن يلتحق بها حق الالتصاق لكي يستطيع أن  
يصير ككُنه شمساً . فالفلسفة الطاوية<sup>١</sup> تشبّه الانسان بإناء فيه  
زهرة من ذهب . ولا فرق في أن تكون شمساً أو زهرة مضيئة  
تمّ عن كنز خبوء ، فالذات منطّاة ببرايق . معرفة النفس إذاً  
هي القدرة على ان يراقب الانسان طبيعته الأصليّة ، وأن يبقى  
أميناً لها ، كما يقول يعقوب الرسول « إذا سمع أحدٌ الكلمة ولم  
يضعها موضع العمل ، فإنه يشبه رجلاً تأمل وجهه في المرآة ،  
حتى نسي من هو » ( ١ ، ٢٣ ) .

إنّ أصالة معرفة الذات متبقى دائماً من طاقة المعرفة

---

( ١ ) فلسفة دينية ، قامت ، في القرن السادس قبل المسيح ، على تعاليم  
المفكر الصيني لاوتسو ، الذي دعا الى عبادة الأرواح والطبيعة والى التمسّد  
للأقدمين . ( المترجم )

والمحبة ، سواء انتهت الى تألثٍ يحمله كل كائنٍ في ذاته ، أم  
بقيت على مستوى واحدة من مراحل الشوط الكثيرة . فكل  
انسانٍ يباشر خِطَّةً دقيقة التعبير عن شخصيته . ومع ان  
طرق التوصل لمعرفة الذات لا تتأثر أبداً ، فإنها كلها تشترك  
في وحدة متجانسة . فضمير الشمس الداخلية النير ، وزهرة  
الذهب ، في الذات : وهذا هو المعرض الجمل للمعرفة الحقيقية .  
يبقى ، أن رهان المعرفة الحقة ، كامن عند الوعي النير في النور  
الداخلي ، عند الزهرة الذهبية ، وعند معرفة الذات .

## تمهيد

نريد أولاً أن نحدد موضوع معرفة الذات . ومن خلال أبعاده ، يبدو ضرورياً تعيين الحدود مع تحديد محتوى ما نرمي اليه .

انّ دراسة « الوضع الانساني » هي دائماً مطمح الأفكار . لقد حاول مونتيني ان يقترح معرفة صائبة ، بعيدة عن النظرية المفترضة بقدر ما هي بعيدة عن الموسوعية لكي « يعرف الانسان ان يصلح أمر حياته وأمر موته » ( محاولات ، ١ ، ٢٦ ) . فكان وهو يصف الانسان ، يصوّر نفسه بنفسه ؛ وكان ، وهو يبحث لمعرفة نفسه والتعريف بالطبيعة الانسانية ، يكتفي بأن يصف نفسه في فضائلها وأهوائها وأت يرمم خطوط وجهه الكبرى ويدرس انعكاسات بحشه عليه ، ويمبارة موجزة ان يعرف بذاته . ولم يكن مضطراً الى ان يدافع عن صواب طريقته لأن « كل انسان يحمل في ذاته صورة كاملة عن الوضع الانساني » ( محاولات ، ٣ ، ٢ ) .

هل الانسان مجرد جسد بال تولد مستضعفاً للعاهات ،

حق ان " عددًا من الحيوانات موضوع " في متناول حاجته الى  
الحماية ، وحق انه مضطر " الى تلقي تعليم لمعرفة كيف  
يتغذى ، وكيف يكتسب ، وبكل بساطة كيف يعيش ؟  
وفي هذا الصدد من الكلام تكلم لوكارون ملحقًا على عرض  
الضعف الطبيعي الكائن في الانسان بالنسبة الى الحيوانات ؛  
لأنه تعلم منها فن البناء ، وتنظيم العيلة ، والمجتمع ، والبيت ،  
والجمهورية . وقد أخذ لوكارون ، عن أوفيد ، ما أمماه امتياز  
الانسان ، في حمل « قامة مستقيمة ، ناظرة نحو السماء ،  
صدره » . أما موتين فانه يهزأ من هذا الوضع الامتيازي  
ويتحدث عن الحشرات التي تملك نظراً مقلوباً ، ومع هذا ،  
فهي تنظر الى السماء ؛ ومن جهة أخرى ، فالجمل والنعامة  
يحملان عنقاً يمتد الى أعلى من الانسان ! وقد استوحى موتين ،  
من بلوتارك ، الملاحظة التي عبر فيها عن أن البون بين انسان  
وانسان ، أكبر منه بين حيوان وحيوان . والى هذا يمكن أن  
نضيف : انه اذا كان كل حيوان يستجيب الى شرط وجوده  
ونهايته ، فان الانسان لا يصدع لهذه الاستجابة .

إن بنية الانسان مثلثة : فهو جسد وروح وفكر ، أو  
بتعبير آخر جسد ، وروح دنيا ، روح عليا ، وانه لمن المفضل  
ان ندع القسم الأول لنعمل ، قبله ، على مبدأ الفكر . وستتاح

لنا فرصة العودة الى هذه التعابير عندما ندرس اكتشاف الذات الذي ينطبق على اختبار الأنا كتحريّر . ولهذا فإن معرفة الذات تبدو دعوة الى الحكمة . من ضمن هذه الناحية تبدو معرفة الذات ملكاً للفلسفة ، شرط ان تبقى الفلسفة أمينة لذاتها . وتقتضي هذه المعرفة ان يكتشف الانسان نفسه ، وبهذا الاكتشاف يصبح خالق ذاته . وهذا الخلق لا يتجلى في النظام الفكري ؛ أو بشكل أوضح ، الخلق الفكري أو الفني ليس هنا غير الرمز ؛ كما لا يثبت وجوده حتى في التكامل الخلقى . أما عزمه الفاعل ، فهو شيء آخر . ولكن المعنى بالبحث هو ترفيع الكائن بكامله نازعاً نحو الحياة الخاصة بالكائن الجديد ، على حد ما تكشف لنيقولا بيردييف ؛ والفعل الخالق يبدر كنافذة فتحت عبر الضرورة الملحة . ومن أجل هذا لا تحمل معرفة الذات أي تفكير في عجز الانسان عن الكمال ، وفي بؤسه ، بل تختبر عمق الحقيقة الانسانية ، عالمة انها لا تقدر على بلوغ ذلك العمق إلا بالتغيير . ومعرفة كهذه تنتهي الى اكتشاف معرفة الانسان ١ .

(١) أنظر ، بصورة خاصة ، نيقولا بيردييف ، معنى الخليفة ، باريس ، ١٩٥٥ ، وسيرة حياته ، باريس ، ١٩٥٨ .



وهذا البحث لا يحتمل ازدياداً ولا تكثراً من قبيل العالم ؛  
والعالم يفرض حدوداً ؛ فمن المناسب أن نخترقه فقط بكل  
حرية . وفي تحقيق الانسان ذاته ، يستكمل خلق العالم ويفرغ  
منه بدقة . ومن أجل هذا ، رأى نيقولا بيردييف أن الفعل  
الخالق يتمثل مع متناول ما وراء القبر ؛ وبما ان الانسان  
موجه نحو نهاية العالم ، فإنه يعلن عن أرض جديدة ، يعني  
عن أرض يتمثلها في صورة أخرى ؛ فيكون الانسان صانع هذه  
الصورة المستحدثة .

ومنذ العصور القديمة ، بدأ الفلاسفة يبحثون عن استطاعة  
الإمساك بهذه الرؤيا الفكرية ، التي ملكها الانسان . فسقراط ،  
وأفلاطون ، وأفلاطون قدموا تعليماً صالحاً لكل العصور .  
وإذا لم يكن لنا من مرشد آخر ، فهؤلاء أكفيا عرفوا كيف  
قادوا الافكار . ومعظم الفلاسفة حاولوا ان يتناولوا الانسان  
موضوع فكر ، فديكارت ، ومالبرانش ، ومين دي بيران قد  
خصوه بتأملات كثيرة . أما ماكس شيلر فيلسف على إبراز  
فائدة الانتروبولوجيا ، بينما الفيلسوف الكبير الروسي ، نيقولا  
بيردييف ، يكشف عن أهمية معرفة الانسان نفسه بنفسه ،  
مُعيراً هذه المعرفة اهتماماً أكبر من اهتمام أي مفكر آخر

معاصر . وأخيراً ، فيسيكولوجيا الأعماق ، وفلسفة الأحداث ،  
وهما فلسفتان لا سبيل الى فصلها عن تاريخ الأديان ، أتاحتا  
للباحث تحديد وضع الانسان في قلب حقيقته ومصيره .

وعلى الرغم من أهمية معرفة الذات بوصفها علم الانسان ،  
فإننا قلنا تلفت الأفكار الى الاهتمام بها . وهذه حقيقة أقر بها  
بأسكال مع بعض الحزن إذ قال :

« اعتقدت أنني سأجد ، على الأقل ، كثيراً من الرفقاء في  
دراسة الانسان ؛ لأنها الدراسة الحقيقية الخاصة بالانسان .  
ولكنني كنت مخدوعاً ، فقد وجدت دارسي الانسان أقل من  
دارسي الهندسة » .

وإذا كان عدد محققي معرفة النفس قليلاً ، فإن هذا لا يعني  
ان هذا العلم هو من نوع السرّ الذي يجب الكشف عنه .  
فأعجوبة الكائن ليست أعجوبة "إلا" في حالة إنعدام الوسائل  
الصالحة للكشف عنها . ومن الملائم لتناول هذا العلم ، أن يضع  
الباحث نفسه خارج الحواس وخارج المفهوم . ففي مستوى علم  
النزرة والالكترتون ، لا تستطيع العين أن تلتين شيئاً ،  
وكذلك ، في الكائن دقائق تخفى غير مرئية ، وهي دقائق لا  
يُستطاع التفهّم لوجودها في حدود عادية . وأشكال الوجود ،

المنظور وغير المنظور ، هي بمثابة اشكال طاقة متكاملة ومتناسبة . وداخلية هذه الأشكال وخارجيتها تتمثل كعالمين متمايزين ؛ ولكي نعبر عن عالم الخارج ، كلُّ وصفٍ يظهر أنه ملائم . أما في التعبير عن عالم الداخل ، فنحن مضطرون لاستكشاف أعماق لا حدود لها تقريباً . واختبار هذا العمق لا يُترجم إلا بالصورة ، فالرموز وحدها تستجيب لهذا البعد . ومعرفة الذات تتمثل كبعث في حسن الحياة ، وبحث في الانعتاق ، يعني اكتشاف الحقيقة ، حقيقة تظهر وتتجلى بصورة دائمة الجيدة . وبانتهاها الى الحكمة ، تصنع معرفة الذات من الانسان كائناً حراً ، سيّد مملكته بالمعنى الذي قال فيه رونسار ، سنة ١٥٦١ :

يرى أبُلونُ نمو الفضيلة  
في كنه ذاتك ، أن تدركه  
ومن يعر ذاته ، سيدها ،  
ملك عظيم ، ولا مملكته ١

فالتقاليد الشرقية ، والفكر اليوناني ، واليهودي والمسيحي ، كلُّ على طريقته ، يرى للالسان طريقاً تتيح له أن يكتشف في

---

(١) الترجمة ، شعراً ، من هنري زغيب .

ذاته عنصره الإلهي ، وأن يبحث فيه الحيساة بواقع معرفته  
وحدتها .

في هذا الكتاب ، سنأتي غالباً على ذكر سقراط . إذ كيف  
ننسى ان سقراط ، عندما صادف كزِينوفون ، أوّل مرّة ،  
قطع عليه الطريق بعصاه وسأله قائلاً : « من أين تشتري الأشياء  
التي تحتاجها لحياتك ؟ » فأجاب كزِينوفون : « من السوق » .  
وأردف الحكيم سائلاً : « ولكي تُصبح رجلاً محترماً ،  
أين يجب أن تذهب ؟ »

فاقرّ كزِينوفون بجهله . فقال له سقراط : « إتبعني ،  
تعرف أين » .

سنعتمد ، في هذه الدراسة ، طُرُقاً متلاقية ، وتقديرات  
متتابة ، محاولين الإبقاء على تلاحم داخلي . فبعض نقاط هذا  
البحث ، ستكرر مراراً . وإنما تعمدنا هذا التكرار ، وأوردناه  
في صيغ مختلفة ، لأن من المستحيل أن تتحدد معرفة الذات  
دون معاناة تجربتها الشخصية .

## الاستفهام وجوابه

ليس يحيا إنسانا ، من لا يسأل  
نفسه عن نفسه .

أفلاطون - أبولون - ٢٨٠١

إن معرفة الذات نتيجة استفهام . والانسان الذي يريد  
الاستجابة لقدره يجب أن يستفهم من ذاته عن ذاته ، أن يسأل  
ذاته من هو ، ومن أين جاء ، وإلى أين يذهب؟ لا يوجد جواب  
يستطيع أن يُرضي ، ولهذا ، فهو في جميع مراحل حياته ،  
يطرح على نفسه مجدداً مسألة مصدره ، وقدره ، وقدره  
كإنسان . والاستفهام هذا ، شبيه بخبزه غذاء كيانه ، يضعه في  
خالة من اليقظة والامتداد في قلب مأساة الانسان . فالشك  
واليقين ، والشك أيضاً ذو وجوه استفهامية ووجوه جوابية ،  
في مستمر من طرح المسألة .

إن معرفة هذا شأنها ، تضع نفسها في قاعده الوجود  
الانساني ، فيمكن أن تتخذ وجوهاً من التفسير مختلفة . وما

بقي الانسان جاهلاً نفسه ، من جهة ، عارفاً ، من جهة أخرى ،  
أنه رهن الموت ، فإنه بهذه المفارقة يتميز عن الآلهة .  
لتعرف جيداً طريقنا ، والحصة المهيبة لنا . « لا تذهبي ، يا  
روحى ، الى تمسّي حياة لا نهاية لها » ( بندار ، ١٦ - ١٩ ) .  
أما في ما يتعلق ببندار ، فالمقصود هنا أنه يدعو الى أن  
يعرف كلّ حدوده الخاصة ، وألاّ يحاول الانسان أن يفلت  
من اتزان ، فهذا ليس غير ملائم للانسان فحسب ، ولكنه  
مستحقّ العقاب دائماً . ومن جهة أخرى ، فإنّ معرفة النفس  
استجابة للأمر المشدّد الذي أطلقه عرفان ديلف : « إعرف  
نفسك » وهذا ما شهروه النصّ الذي تركه لنا دوتيرونوم ( ١٥ ) ،  
( ٩ ) : « ليعرف الناس أنهم ناس » .

معرفة النفس تبدو ، وكأنها المسلكيّة الوحيدة ذات القيمة  
المعول عليها . لأنّ من انصرف بكلّيته الى علوم أخرى ،  
يخاطر بالألّا يضادف العلم الأساسي . وهكذا لا يصادف عوليس  
في نزوله الى الجحيم غير الأموات ، ولن يثسل أبداً في حضرة  
ملكة المكان . كما أنّ المترددين على بنيابوب<sup>١</sup> للزواج ، عندما

( ١ ) زوجة عوليس وأمّ تيلياك . بقيت مدّة العشرين عاماً ، التي كان  
خلالها الزوج غائبا ، ترفض طالبيها للزواج ، واعدة انها ستتجيب لطلب  
الزواج عندما تنتهي من حوك قطعة لسج . كانت في الليل تحمل منها ما كانت  
قد ساكتة في النهار . ( المترجم )

أبعدتهم عنها ، اضطروا الى الاكتفاء بالخدمات . من أجل هذا يرى نيقولا بيردييف أن الفلسفة والعلم من حصائل معرفة الانسان : فالفلسفة تتمثل في معرفة العالم داخلياً عن خلال الانسان ، والعلم يتمثل وعياً خارجياً من خلال الانسان .

... إن الوجدان الانثروبولوجي ، لم يكن سابقاً فقط علم الكائنات وعلم الكونيات ، ولكنه كان أيضاً سابقاً نظريات المعرفة وفلسفة المعرفة ذاتها ( معنى الخليقة ، ص ٨٢ ) . وفي هذا الصدد كتب ، في ما بعد ، الدكتور روجيه غوديل : « إن الطريق الملكية هي حيث يتفاعل ويتلاقى ، في مرتكز متبادل ، حب العلم وعلم محبة الحقيقة » .

وفي مجرى العصور ، ظهر رجال "حركهم حب المعرفة والعطش إليها ، فذكروا بضرورة هذا الاستفهام . وقد اكتشف هؤلاء الرجال من خلال التقاليد ومن سريرة وجدانهم ، السؤال النهائي ، الذي يهيم بمحاولة الانسان في اتجاه البحث عن ذاته ، بنية المشاركة في استكمال الانسان الذي فيه .

### النباة ، الصفاء

### وحيبة النور غير المشروط

لابد من توفر أوضاع واحتمالات مختلفة للوصول الى معرفة الذات . وهي أشياء يمكن أن تُجمع في ثلاثة شروط

رئيسية ، هي : «نباهة» ، والصفاء ، وحبّ النور غير المشروط .  
ليست النباهة ضرورة عند عتبة الطريق المختارة فحسب ،  
ولكنّها واجبة الحضور المستمر . والنباهة ، بوصفها حالة من  
اليقظة والعناية ، تشبه جهازاً لاقطاً في حالة تأهب لالتقاط  
أدنى إشارة . والنباهة متصلة بالموافقة ؛ فهي طواعية دائمة ،  
وهي تبعيّة جامعة . ومن هنا هذا الدور المسيطر الناجم عمّا  
أسماء بيرولّ تسمية «دقيقة الصحة» «الرجوع» ، لكثرة ما هو  
رجوع الانسان الى ذاته . وعندما نتكلّم على النباهة ، فإننا  
نذكر ما للبرانش الذي أقرّ دائماً اعتماد الاستفهام . وإذا تجاوزناه  
الى تلميذته سيمون ويل ، نرى هذه تعلق أهمية على النباهة  
أكثر من أهمية الإرادة . فإنّ الانسان الذي لا يفرّق بين الخير  
والشرّ يمتدّ بنباهته الى هذا وذاك ، ثم انه يختار مضطراً في ما  
هو بمعنى الخير ، بفضل حادث من النظام الرياضي . فالقديس  
لا يبذل جهداً في الاختيار ، إذ انه يعمل الخير على طريقة النحلة  
التي تطير نحو زهرة<sup>١</sup> . ولقد وصفت سيمون ويل المصاعب  
القصوى التي تصادفها النباهة ، فقالت : «الروح تعبّر بكثير من  
حركة العنف ، عن رفضها ، أكثر مما يتعرّض الجسد للتعب» .

(١) انظر كتابنا «مدخل الى رسالة سيمون ويل» ، باريس ، ١٩٥٤



تقبض النباهة على الصراع الداخلي ، وعلى الاشتراطية ، وعلى الازدواجية ، بالمراقبة الدائمة . وهي تفك الانتظامات الآلية كما يفعل ولد يفكك لعبته قطعة قطعة ليعرف عناصرها . وتحت وطأة المتناقضات تأمر النباهة الوحدة العميقة ، فهي مأخوذة بوجودان الحاضر .

ولهذا ، فإن النباهة تتميز بالصبر ، وقد عرفت كيف تضع نفسها أمام التحرك المثير وجهاً لوجه . وعندما اكتشفت أنها فريسة حركة متناوبة التحرك ، من مثل حركة ساعة ذات رقاص مجنون الترجيح ، أوجبت على نفسها أن تحتجز الهنية التي تمددها نحو الأمام لتدشين مصير يدفعه الجبن الى الوراء ، خوفاً من المجهول . وهكذا فإن النباهة ، على حد قول مالبرانش ، باختراقها « عمق الأشياء » تتيح التوصل الى « بلد الحقيقة » ؛ فتبدو سبباً ظرفياً لظهور النور ، لأن النور ينتشر في الفكر بنسبة ما يكون قدر النباهة متوفراً .

النباهة صلاة طبيعية نقدّمها للحقيقة الداخلية ، لكي تكشف لنا عن نفسها ( محادثات مسيحية ، ١ ) .

وكما تكون النباهة ، التي تثير الصفاء ، يكون التوقف الآني . ولكي تستمر حالة الصفاء ، فالحاجة الى الشجاعة قائمة . والانسان الصافي الذات يعتبره من لا صفاء في ذاته كبطل .

بطل تقوم عظمته في قدرته على إثارة الإعجاب ، وفي واقعته  
الذي لا يبدو مترجحاً متردداً أمام ما يكتشف . والخطأ  
يمكن أن يقع إن نحن خلطنا ما بين الصفاء الكاشف عن الحقيقة  
وبين ازدياد التقاليد والأخلاق ؛ فالحد الفاصل يوشك ألا  
يكون ملحوظاً .

إن الصفاء يظهر قاسياً . وهو ليس كذلك البتة . فهو  
يحتفظ باتزان وقدره . فالوجه المتجعد ، الذي تعكس شكله  
المرآة ، ليس قاسياً إلا بالنسبة الى من يعطون أهمية للتجاعيد ؛  
ولترهل العضلات واللحم الذي يغطيها . والصفاء مُغنٍ لأنته  
يحتمل انفصلاً تجاه كل ما يكتشفه . ولكته يبقى شاهداً ؛  
وهو أبعد من كل ما يمكن أن يثير فساد النظام وضياع الفكر .  
وكذلك فإن الصفاء لا يقيم ، ولا يحاكم قطعاً ، بل يميز  
دون أن يرف الأجران ، ودون ان يلفت الرأس ، ودون ان  
يقلب الشفاء اشمنزاً . ولا شك لا يُعير اهتماماً للتمازي  
الخادعة ، لأنها ضعف . وعلى أي حال ، لا يُفسد ولا يستهلك ،  
بصورة تدريجية ، ما يصل اليه في الانسان . والصفاء بوصفه  
ذا اهتمام بالحقيقة ، لا يضع نفسه في خدمة المثاليات ولا في  
خدمة الاستراتيجيات . إنه سيف لامع وليس خادماً لمشاريع  
هدم . أما الذين يحرّبون ، ولو بصورة وادعة ، ان يبدؤوا

الخطأ فانهم يخلقون لأنفسهم أعداء لا يهدأ آثارهم ، حتى ولو لم يتجاوز تبديد الخطأ مستوى الأحكام المسبقة البورجوازية . فالصفاء في واقعه يتمثل بظهور آخر في أبعاد بناءة ، بعيداً عن الملاشاة . وأكثر ما تبدو فيه الحاجة الى الصفاء ، وكأنته الشرط المطلوب ، هو تجاه الصفاء نفسه ؛ إذ هو العتبة ، التي تتيح الدخول الى معرفة الذات . والنباهة والصفاء هما دائماً توأمان . فالنباهة تستحيل استفهاماً ، فينشأ حوار بين مَنْ أنا كائن وبين من يمكن أن أصير . والصفاء يسمح لي بأن أسبر هذه الظلمة التي لا تتشبهت بسوادها ، ان هو عرف كيف يفصل بين القوقعة العظمية والنخاعها ، غير انّ الظلمة ترجف عندما يظهر لها النور .

إنّ ما أبحث عنه في ذاتي ما يزال فريسةً للظلّ ، فيجب ان أكتشفه في حب للنور غير مشروط . وإن لم أفعل فكلّ ما أطلبه يفرّ منّي ، فلا أستطيع أن أقبض على شيء . فالتوجّه نحو النور ينفي كلّ إشفاق على ذاتي . والبحث يجب ان يجرى مطمئناً بالشجاعة . وفي الإلحاح على الاعتصام بالشجاعة قالت سيمون ويل : « مَنْ ينجس الجروح فعليه أن يحبّ أيّ شيء غير الله » . وكذلك يصحّ القول : إنّ مَنْ يخاف الجروح يحذف ذاته من محبة النور . ورجلٌ كهذا يكون قد رفض

معرفة الذات . ومما لا شك فيه انّ الاحساس الذي هو هبة  
الآلهة يفرض جواباً موجعاً ، ولكنّه محفوفٌ بالفرح ،  
والحماسة ، وثورة الغبطة . وهذا الانسان الذي تغطيه قوقعة  
يصعب عليه الخروج منها ، ليس مهياً لهذا الاحساس ، فعالمه  
فقير وقناعه الذي يفشيه يعزله في وحدةٍ أثنائية . فمعرفة  
الذات تُكَلِّسُ في التعرّي ، المتنبّه لكلّ فكرةٍ يُشْتَبِه في  
أنها تستقبل الأثنائية وكلّ مظاهرها . والآخذ بمعرفة الذات  
يعيش وحده في قفرٍ غير مكثرتٍ لا بالثناء عليه ولا بتناوله  
بالإهانة . انه سعيد بلقاءاته ، فهو لا يسعى اليها قطعاً ؛ كما انه  
لا يحتاج الى أي تشجيع للتأكد من أهمية التطرق الذي  
اعتمده . فالنور الذي يفهم نداءه يكفي ، والباقي طنين .  
والانسان لا يستطيع ان يأمن الى سلامة الطريق ، التي  
اختطها لاكتشاف معرفة ذاته ، إلاّ في حدود محبته النور  
محبّة حية ودينامية . وهذه المحبة تتمثل كأنها إرادة  
منجزة . فاذا ما انطلق الانسان الى البحث عن معرفة ذاته ،  
نبيهاً ، وصافياً ، ومحبّاً النور سأل نفسه : مَنْ أنا ؟  
وتأتي الأجوبة أولاً متباينة مشفوعة بنفي : أنا لستُ هذا ؛  
أنا لستُ ذلك . وفي آخر الطريق المحتطّة يصل الباحث عن  
معرفة ذاته الى استطاعة القول من هو .

والإجابة عن هذا السؤال : مَنْ أنا ؟ لا يستطيع الانسان أن يجيب إلا من خلال توجه مباشر ، يُحدثه توجهه صحيح . فمن الملائم إذاً ، أن يتخير الانسان اتجاه بحثه نحو نقطة النور التي يجب أن ينطلق اليها . وهذا التوجه قائم في البحث عن هذا النور المشرق الذي تكلم عليه غليوم دي سان - تيارتي ، في رسالة شهيرة الى « إخوة جبل الله » . فالمشرق يملك معنى شروق الشمس ، وظهور النور ، « التوجه نحو الشرق » ، هكذا جاء على لسان هنري كوربان في كتابه « ابن سينا وقصة الرؤيا » ( ص ٤٠ ) . وعلى شرط ممارسة هذه « الفلسفة المشرقية » يصبح الفيلسوف « الغربي » بفعل وضعه الإنساني الأرضي « فيلسوفاً شقيقاً » (المرجع نفسه ص ٤١) : وهكذا ، فإن كل فلسفة متجهة نحو النور تتمثل كأنها طريق تصل الغرب بالشرق وصلاً غير قائم على الأصعدة الجغرافية ، ولكنّه في المعنى الرمزي لهذين الحدين من التعبير . فالشرق والغرب موجودان داخل الكائن المحتوي على رمزي : الفجر والغسق . إذاً ، من انطلاق الانسان من ظلمته ، ومن كثافة جسمه المانع الضوء ، يتجه ، وهو يبحث عن معرفة ذاته ، نحو حقيقته المشعة ، تحرّكها إليها الرغبة في معرفتها ، وبالتالي ، الرغبة في معرفة ذاته .

## المعرفة والعلم

هنا ، يبدو ما بين المعرفة والعلم من فرق في المعنى ، أي في مجال اكتشاف الذات . ففعل المعرفة يقتضي علاقة قائمة بين الفاعل والموضوع ، أو بتعبير أقرب الى الصواب هو وحسدة العارف والمعروف . فالمعرفة تفترض أن الذي يعرف يتشرب ما يعرفه بوعي نقدي ، ويتناسق مستمر مع الفكر . وبالتالي فإن المعرفة تفرض تعديلاً في العارف قائماً على المماثلة بين العارف والمعروف .

وقد توصل جول لانيو ، في كتابه « أمثولات ونبذات مشهورة » الى الكشف عن كيفية التمييز بين لحظتين مختلفتين في فعل المعرفة : الحقيقة الملحوظة والحقيقة المعترف بها . فالفكر الجامد يمكن عناصر الحقيقة وحدها ، مع بقائه مغلقاً تجاه المعرفة ، جاعلاً من نفسه مرآة غير فاعلة ، عاجزة عن التمييز بين العناصر المختلفة التي تعرض لها . والفكر الفاعل وحده هو الذي يسيطر على الأفكار ، ويقارن ما بينها ، ويقدر على تناولها تبعاً للعلاقات القائمة بينها .

ولهذا قال جول لانيو أيضاً : « لا يبدو الشيء نفسه ثابتاً حقاً لكل الأذهان المختلفة ... فالثبوت الصادق ليس ، إذاً ،

في الأفكار ، ولكن في الذهن الذي ينظر اليها بعين الاعتبار ،  
( المصدر ذاته ) .

الحقيقة أبدية مع أنها دينامية ؛ وبما أنها تقع خارج الفاعل  
والموضوع فهي تقف في مواقف ذات مستويات مختلفة والقيمة  
من معرفة الحقيقة هي نفوذ الذهن الى لب الحياة الحقيقية ؛  
إذا ، تحقيق كائن ممكن يعني خلقاً ، على حد قول نيقولا  
بيرديف .

فاكتشاف الحقيقة هو فعل خلق ذهني ، وفعل خالق  
الانسان فعل خالق تجاوز العبودية لعالم حوادث الوجود  
( مملكة الروح ومملكة قيصر ، ص ١٣ ) .

هذا العالم الذي أنظر اليه لأتعرّفه ، هو عالم متحرك ،  
متغير ؛ وبمراقبتي هذه المتناقضات الأبدية ، أجدني مجبراً على أن  
أطمئن الى فقدان الانسجام فيه . فلست استطيع أن أجد في  
معرفة ما هو متغير ولا ينفك عن الإفلات مني ، لذلك وجب  
عليّ أن أصوّب اهتمامي الى نقطة لا تتغير . والكائن في حدود  
ذاته غير متغير ، أو هو يستبعد كل تسمية تعريفية . وهذه  
الحركة ، وهذا الانسجام المفقود من العالم المحسوس مما منبع  
لضياح الفكر . ويستمر هذا الضياح الفكري الى ان يفهم  
الكائن الانساني انه ، خارج هذا العالم المحسوس ، يوجد

خيرٌ في ذاته ، وجمالٌ في ذاته ، وحقٌ في ذاته ، وبالتالي توجد حقيقة مطلقة في الكائن الانساني . وليست مرامي فيدون بمثابة أمامنا لكي تطمئننا ، ولكن لكي نمسك بالعلاقات الوجودية القائمة بين الروح والأفكار<sup>١</sup> .

في هذه النقطة الأخيرة ، تنتهي المعرفة باعتماد الوجدان الأبدى . ولذلك فإن المعرفة الروحية ( معرفة وجودية ) تتفجر من الأعماق وتكشف عن الحقيقة ؛ أما المعرفة التي تستهدف موضوعياً حوادث وجود ، فإنها ليست من مملكة الروح ، ولا تقوى على الكشف إلا عما هو من مملكة قيصر . وأما العلم فهو مختلف جداً عما تقدم ، فإنه يفترض تحصيلاً منظماً في المفاهيم ، مسائلًا في نوعيات من التحصيل والتنظيم تستطيع أن تبقى خارجية ، وبمك هذا الواقع لا يدخل العلم أي تغيير في الكائن . والمعرفة تقتضي وجداناً مقتنعاً يجهل صاحبها . لذلك يجب ألا ننسى أن سقراط لُقّب حكيماً لاعترافه بجهله . وهكذا كان سقراط يحترم الآلهة مُقرّاً بجهله تجاههم . وعندما جاءه من عرفاف ديلف أن وما من أحد أعلم من سقراط ، كان معنى ذلك : « أيها الناس ، هذا هو الأكثر

---

(١) أنظر فيستيبيار . « متعة الشاهدة وحياة الاستمتاع بالشاهدة في نظر أفلاطون » ، الطبعة الثالثة ، باريس ، ١٩٦٧ ، ص ٩٠ .



علماً بينكم ، سقراط ، ومع هذا فلا يُحسب علمه شيئاً ،  
(الدفاع ، ص ٢٣) . وقد عاود الكرة في هذا الجهل السقراطي  
مونتين ، ولكن لحسابه .

معرفة الذات هي فن حياة أكثر منها درساً . فهي ليست  
محتجزة لأونة معينة من وجود الانسان . كما هي الحال ، مثلاً ،  
في دراسة علم أو تعلم حرفة . فهي تتناول الحياة ككل ،  
وتمارس في كل حين : في العزلة أو في العساقلة بالآخرين ، في  
حالات الجد أو اللهو . والطريقة التي تتناول معرفة الذات لا  
تتمثل أبداً بصورة سلبية ، والمضادة لا تختار قطعاً كوسيلة  
للسلبية ، حق ولا السعي الى الاستكمال الروحي أو اعتماد  
القساوة . فرفض الشيء، يعني إثارة الرغبة في امتلاكه وإعطائه  
أهمية أكثر مما يستحق . والفيلسوف الحقيقي ، صديق الحكمة ،  
ليس له أن يتخلى بإرادته عن شيء . فهو ، بحكم واقع اتجاهه ،  
وحده يلاحظ ان الأشياء تتركه وتتفصل عنه ؛ فلا يلبث أن  
ينساها سريعاً لكثرة ما هو مأخوذ باكتشافه الخاص . ولكن  
من انصرف بكليته الى معرفة ذاته لا ينجو قطعاً من تغييرات  
وجود متتابعة ، كما انه لا ينجو من قساوة الحوادث ، ومع هذا  
كله فلا تتناول التغييرات مثلما تتناول الناس الآخريين ، لأن  
قدرته على ميازة الأشياء تجعله كفواً لأن يميز المطلق من النسبي ،

والحقيقي من الوهمي . وهكذا كان سقراط ينبذ من حياته كل قلق شديد ، عالماً ان الإله أوسع علماً من الانسان بما هو خير له ، ومهمة الانسان قائمة في ان يكون مستقيم السلوك ، عادلاً ، مجتهداً للخير وللخدمة الحق .

### معنى رحلة الانسان

من أجل هذه الرحلة يبدو البحث عن معرفة الذات كأنه خطة موضوعة للتنفيذ . فهي تجعل من الانسان حاجتاً . والمكان الذي يجب ان يزوره ، هو ذاته . والشرط المفروض على رحلة الانسان يجعل منه ، على حد قول غبريال مارسيل ، « الانسان المسافر » . وهذا السفر يتحدد في نظام قائم خارج متناول العمل والمعرفة ، ثم يتخذ طريقه نحو مكان خارجها أيضاً . وهذا المكان نوع من أرض الميعاد لا يبوح بسرّه مسبقاً أبداً . والطريق التي تؤدي إليه لا تقبل التصحيح . من مثل هذا سير ابراهيم والأهمية التي أولاها كيركيغارد وشيستوف هذا السير . والذي يعاني الحنين الى هذه الأرض الميعادية يخاطر دائماً بأن يطيش عن هدفه . وكل كائن يملك نصيباً ، قلّ أو كثر ، أو على الأقل حظاً من لعبة الأرقام التي تتغذى بها

تصبه في الكائن من النسيان ، فيرى واجباً أن يشد نفسه الى مقاعد سفينته ، كما فعل رفقاء عوليس .

الحاج الحقيقي هو عبارة عن النفس . ففي العصور القديمة كثيراً ما نجد « سفر النفس السماوي » وكأنه صورة عن الشمس المكلمة شوطها ، معبرة أيضاً عن البطل المسافر . والسفر حركة تعبّر عن الرغبة في اللقاء ، فهو ، في هذا المعنى ، شبيه بالتطلع ، والتمني ، والتشوق الى حصيلة البحث . هذا السفر يسمح بترك الضمير المشترك للدخول الى الضمير الذاتي . وفي هذا قال غبريال مارسيل ، في كتابه « الانسان المسافر » : « إنها النفس ، تلك هي المسافرة ، وعنّها وحدها يصحّ القول السامي : إنها في الطريق » . وقد شبه فيلون النفس الروحية بانسان رحالة . والنفس هي جوازة الآفاق الصوفية القادرة على التماسّ بالعالم غير المنظور .

ولقد قال غبريال مارسيل أيضاً : « إن الرمزية ، في كل الأزمان تحسست سفر النفس ، ولكن نهجاً مدرسياً تقليدياً ضعيف الدم جناه يغطي هذا السبق البديهي ويعميه » . ثم أضاف : « هي النفس التي علينا اليوم أن نحرّرها من جديد » دون أن تنصبّ كثيراً في ما يمكن أن نسميه التجاوزات البرغسونية . وإنني ، هنا ، أعني بهذه الصفحة نظرية الفكر

بشكل أسامي ، وهي التي لم يؤبه لها كما يجب ، فبدلاً من أن تهضم فكراً ، تراوجت في داخلها الطرق ، نازعة الى الوقوف بها عند تمثيل المادية ، التي تتألف منها .

لقد جاء تفكير غبريال مارسيل أميناً للفكرة الافلاطونية : سفر الروح يحري في اتجاه النور ، نحو نور لم تره بعد ، نحو نور سيولد ، على أمل الانسحاب من ليها الحاضر ، ليل الانتظار ...

المهم هو الخروج من هذه الظلمات التي تولدت أسراً :

... انني أبدولعين نفسي أسيراً ، وإذا كنت لا أجدني أسيراً ، فأنا على الأقل ، كمن زُجَّ به في مضايقة خارجية قائمة في زيٍّ من الوجود الذي 'فرض عليّ' ، والذي يحتمل انكاشات عن كل ترتيب يحري لعملي الخاص .

في الحقيقة ، النور دائماً مستقبلي ، ذلك لأن «حاضر» المسافر محروم من كل مفكرة تاريخية . وهذا الشرط الوصولي الواجب اعتماده ، مفقود في واقع الحاضر ، ولكنه يملك الشعور المسبق بقدرته على « ان يكون » . لذلك كان مبدأ «الصراحة» الذي استعمله غبريال مارسيل ، والذي نجده أيضاً عند برغسون ، الذي وضع هولديرلن معناه ، بشكل خاص ، موضع قيمة في نشيده

الحزين للاندوير : فلنظر الذي يفتح ، يفتح ما هو إشعاع ضوء<sup>١</sup> .

المادة الحية أو الجامدة تحتل تغيرات . فهي مكات تطورات . والفكر البشري يتمسك بتميز الحركة ، والدينامية التي هي قائمة في داخل كل حقيقة لتحركها وتغيرها . وهو يمسك بالإيقاعات كالطبيب الذي يفحص الدورة الدموية والتنفس . وبغدد أن عبر آينشتاين عن دهشته بالنسبة الى قوتين الطبيعة أردف قائلا :

إنه يكتشف ، في الايقاعات التي يمسك بها ، سبباً سامياً جداً يجعل كل معنى يَدْخُلُه الناس في أفكارهم مجرد انعكاس عنها .

ويترأى بجمال العوامل الدينامية في الانسان كأنه دعوته الذاتية : دعوة المصير ، نوع من السؤلة السقراطية المثابرة ، ومستولد دائم ، أصبح فيها سقراط معلماً . وهكذا يغدو الانسان في حالة استجماع لبناء ، فهو يخلق ذاته في كل لحظة ، ويلدها ، وبهذا يصبح بالنسبة الى المصير الذي تعهد كينونته ،

---

(١) أنظر كتابنا ، فيلسوف متطرق : غبريال مارسيل ، باريس .

أبأله وأما . وفي مجرى البحث عن معرفة ذاته ، يسك  
الانسان ، في إنسانه ، بالحركة التي تبعث الحياة فيه . وهذه  
الحركة هي مشروع قيد التحقيق . فيضع المرء نفسه على صعيد  
النجاح الخارجي ، في تحقيق طمع أو تعزيز قوة ؛ وفي ما هو  
أكثر سرية ، إنه في صنيع ينتسب الى عمق الكائن ، الذي  
يطبع ، بواقع قيمته ، الأفكار ، والرغبات ، والإرادة .  
وهكذا فإن كل الوجود الانساني يتناوله الضوء الكاشف  
والتعديل البصير .

«الاختبار يضعنا أمام المصير ، هذه هي الحقيقة الأساسية »  
هذا ما يقوله برغسون في كتابه «الطاقة الخلاقة (ص ٣١٣) » .  
أما الأهمية في نظر برغسون ، فقد أعطيت للحركة .  
«يوجد في الحركة أكثر مما يوجد في الأوضاع المتتابعة  
المنسوبة الى المتحرك» . وهكذا «فإن المصير يرجع على مختلف  
الأشكال المتتابعة » ( ص ٣١٥ ) .

يحدد هنري برغسون ، في كتابه «الطاقة الخلاقة» الفوارق  
القائمة بين مختلف الحركات المتنوعة ، والمطورة ، والتنمية ،  
حركات من الأصفر الى الأخضر ، ومن الزهرة الى الثمرة ، ومن  
الدودة الى اليرز .

وفي الواقع ، تفتتح أمام الانسان ثلاثة إمكانات : أولاً اعتماد وضع توازني بين القوى عن طريق الاختيار أو في حالة اللاوعي ، وهذا ما يمكن أن يفسر بإرادة رفض المساهمة في النقاش . ثانياً الالتصاق بالآنا دون محاولة فتح ثغر في الحلقة المهدقة بالآناية . أخيراً الاختيار للمغامرة والسير قدّام الذات . ليست هناك فائدة من وصف حالة جمود الامكان الأول ، لأنه خال من محتوى ذي قيمة ، يماثل في جذبته تخريب القوى الشخصية . من جهة ثانية ، هو تخريب انتعاري ، حتى لو بقي وقتاً طويلاً ، وهذا النوع من التخريب الانتعاري يجدده في كل لحظة رفض التفسير .

واللصوق بالآنا يحكم بالعزلة على من هو مكاث له . وهوذا لصيق الآنا سجين أنانيته . فليُمانِ مدة جزء من الثانية هجر حظه ومجاقاته ، وليستخلص درساً من اختبار هذه العبودية ، التي ذروتها هذه الآنا المستبعدة ، وهوذا شاهد هذه اللعبة ، التي هو ضحيتها ، قد أصبح حراً لأن باباً انفتح أمام ضميره بمسد المعاناة . ولكن في حالة إلقائه تبعاً أسباب إخلاء سبيله على الحوادث وعلى الغير فإنه يُحكم مؤبداً : فيمضي دائسماً التيه في حلقة الملحددين . وقد أظهر روجه كوديل ، في كتابه « اليونان السرية » كيف ان ديمتر عجزت عن الالتحاق بالخالدين مدة بقاء

قلبها طعمة لمرارة الحزن « حولها تتطفئ بذور الحياة » .  
الإنسان، بسبب أنانيته، مسؤول وحده عن سجنه الخاص .  
وهناك نص صيني « هسن - هسن منع » أي الإيمان بالفكر  
يعرض محادثة ذات مقزى بين حكيم اسمه ( شانغ - تسان )  
وتلميذ له اسمه ( تاو - هسن ) ، قاله التلميذ عندما جاء ينحني  
أمام معلمه :

« أتوسل إليك أن تهني تعليمك الرحيم . وتفضل بأن  
تُريني كيف أستطيع أن أتحرر » . فأجابه المعلم : « من الذي  
قيّدك » ؟ فرد التلميذ قائلاً : « لا أحد » فأردف المعلم عندئذ :  
« لماذا ، وهذه حالك ، تطلب مني أن أحررك » ؟ وللحصال  
أدرك تاو - هسن الحقيقة ( ١ ) .

إن يكون الاختيار في سبيل المغامرة ، فهذا يعني أن يتقدم  
الإنسان على ذاته ، وأن يختار الطريق الضيق : « إذهب في  
شوطك » ، إذهب قدّام ذاتك ، هكذا كانت ينصح سويه .  
والسير إلى الأمام يفرض استرشاداً عن الضغوط الصادرة من  
الداخلية . وفي التوراة نجد هذا المبدأ المزدوج : التمسك على  
الذات واختيار الطريق الضيق . فإبراهيم رمز الإنسان السائر :

(١) انظر د . هـ . بليث ، هسن - هسن - منغ ، في هرمس ، ١ ،  
١٩٦٣ ص ٥٥ .



«مر امام وجهي وكن كاملاً» . ويبقى السيز الداخلي مستصعباً  
ما بقي الانسان طائشاً بفعل إثارته الخارجية . وهكذا لاحظ  
باسكال ان الانسان ، بمجرد رفضه الحركة ، يقع فوراً في الضجر  
والياس .

وفي ذلك قال : « لا شيء أشد وطأة على الانسان من أن  
يكون في راحة تامة ، دون زغبة ملحّة ، ودون عمل ، ودون  
تسلية ، ودون جدّ . لأنه عندئذ يشعر بانعدام وجوده ، وبمزلة  
الموحشة ، وبمجزه ، وبتبعيته ، وبتقصيره ، وبالفراغ الذي  
هو فيه » .

وكان قد سبق لباسكال أن أكد أن « طبيعتنا هي في  
الحركة » . وبما لا حاجة الى تأكيده أنه يجب أن نفهم الحركة  
تعني الجسد أو النفس .

ومن يمش في اتجاه صحيح ووجب عليه ، لا أن يتجنب  
الفخاخ المنصوبة تحت خطواته فحسب ، ولكن أن يحذر كل من  
يحمس حوله عازماً على أن يطيشه عن هدفه ، وأن يسكه عن  
غايته . فهمة الجوّاس أن يؤخروا خطى من يتقدم على الطريق  
المساعدة . « والشيطان يحوم كالأسد » ، هذا ما يقوله القديس  
بطرس في رسالته الانجيلية ( ١ ، ٥ ، ٨ ) . ولقد سبق لسفر  
الأمثال ( ١٣ ، ٩ ) أن جاء فيه : الجنون يتمثل في ملامح

امرأة ثقيلة الظل ، حقاء ، جالسة عند باب بيتها ، لكي تدعو الى منزلها المارّين في استقامة سيرهم . أما المستجيبت من هؤلاء لدعوتها الملحة والمثيرة فإنهم يمسون فريسة ظلال عبر الوجود .

والتجربة الكبرى قائمة دائماً في أن يلتفت الانسان رأسه ، ليس الى الجوانب الخارجية فقط ، لكن في أن يصوّب نظره الى ورائه . فالالتفات الى الوراثة هو ، في شكل ما ، اعتبار الانسان نفسه غير متبدل منذ ولادته ، وأخذة نفسه بهذا الاعتبار . وهو أيضاً أن يحمل ذاته حملاً من الذكريات ، وأن يثقل ذاكرته ، وأن يرفض أن يتجدد كولد . والالتفات الى الوراثة هو رفض للمصير . ومن هذا قول يسوع الذي رواه لوقا : « من وضع يده على المهرات ، ثم نظر الى الوراثة ، فهو غير مستحق ملكوت الله » ( ٩ ، ٦٣ ) . ومن جهة أخرى ، في ملكة الظلال يستحسن ألا يلتفت الانسان الى الوراثة . ولقد كان في استطاعة أورفيه <sup>١</sup> أن يجد ثانياً أوريديس . فبمخالفته

---

(١) جاء في الميثولوجيا اليونانية أن أورفيه ، أحد أبناء ابولون أو بيلياعر ، قام بعدد من المغامرات الماثلة أشهرها هبوطه الى الجحيم مفتشاً عن امراته أوريديس . وهو يعتبر شخصية ميثولوجية ذات شأن كبير .  
( المترجم )

الشرائع التي كانت تُحرم عليه أن يلفت رأسه ، ما استطاع إلا أن يلمح أوريديس ثم أن يضيئها فوراً بصورة نهائية . والملائكة ، عندما أرادوا حماية لوط وذويه قالوا له أن يغادر بيته ، وأمروه أن يبتعد عن سدوم دون أن يلتفت الى ورائه ، وألا يتأخر طويلاً في السهل . ولكن امرأة لوط ، التي لم تتقيد بالتمسح ، تحولت الى تمثال من ملح . فوراء كل ملتفت الى الوراء رأس ميدوز « Méduse » ، بادي كلاه أو بعضه ، مهمم باستعمال قوته على التحجير أو الصعق . ولكي يوصي فينيان بتجنب هذا الخطر كتب الى مدام دي مونبيرت ما يلي : يجب ألا ينظر الانسان ورائه .

وفي هذا المعنى قال جانكليفيش ، في كتابه « النقي والدنس » ، ص ٢٧٤ : الانسان يجد ثانية . البراءة عندما يعود فيجد « معنى التقدم » وعندما يطيع الدعوة الطيمية للحركة ، التي تعني السير والتقدم . فالانسان إما أن يتجدد وأن يتقدم وإما أن يبقى متشابهاً بذاته .

---

(١) واحدة من ثلاث أخوات ، نالها الموت إذ قطع برئيس رأسها وقدمه الى أئتنا ، على الرغم من انهن كن غير قابلات الموت ، تلتف على رأس كل واحدة منهن أفاع رهيبية . ( المترجم )

وفي الحوار الذي دار بين سقراط وديوتيم ، ذلك الحوار الذي أدخله أفلاطون في « المأدبة » ( ص ٢٠٧ ) ، يوجز ديوتيم رأيه في أن الانسان يعتبر فرداً واحداً من طفولته الى شيخوخته . ولكنه ، في الواقع ، دائم التجدد في شعره ، ولحمه ، وعظمه ، ودمه . إذاً ليس الجسد وحده الذي يصبح جسداً آخر ، فالنفس أيضاً تتعرض لتبدلات وتطورات ؛ فالأوضاع ، والنزعات ، والطبع ، والآراء كل هذه تتعدل . وعلى هذا الأساس تنشأ أرباح وخسائر للجسد كما للنفس .

وهكذا « يولد ناس وآخرون يفسدون » ، وخصب النفس أكبر من خصب الجسد .

هذا المصير ، وهذا التغير الدائم ، يرعاهما الانسان في جسده ، وفي نفسه ، وفي فكره<sup>(١)</sup> ، في آن واحد . وهناك نص لبوطارك يطرح هذه المسألة التغييرية في الانسان ويحلها . فهو يدهش عندما يلاحظ أن « موتاً واحداً » يبدو خيفاً الانسان ، بينما هو يتعرض لعدد كبير من الميتات في مجرى حياته ، وهذا ما خصه بالكلام عليه عندما التحق بالكلية الكهنوتية في ديلفس . وعندما ذكر بنظرية هيراقليطس المتعلقة

---

(١) سنعود الى هذا القسم في ما بعد .

يموت النار ، وموت الهواء وولادة الماء ، قال ان الانسان الناضج يموت عندما يولد الشيخ ، وكان الرجل الفتي قد مات قبل ظهور الرجل الشاب ، وكان موت الولد قد سبق موت الفتي .  
ورجل أمس مات ليترك مكانه لرجل اليوم ، ورجل اليوم هو قيد الموت ليُخلى مكانه لرجل الغد . وليس في الناس من يحيا ويبقى مماثلاً انسان أمسه ؛ فنحن تباعاً كائنات متعددة ...  
وبتغيير الانسان الى هذا يصبح غريباً عن الذي كانه سابقاً . وهذه هي حواسنا التي تجعلنا خطأ على الاعتقاد بأن الظاهر هو وجود حقيقي ، وذلك لجهلها الكائن الحقيقي .  
وتحت هذا الكثير من التغييرات ، يبقى الانسان نفسه غير منقسم ، مثل السمط الذي يخرق حبات العقد .

### الأنا والأنيات

ان رأى أفلوطين في « تعدد الأنا » ذو مغزى ، إذ قال :  
« نوعية « الأنا » تتجانس ونوعية الجو الداخلي » ؛ ومن جهة أخرى ، اذا كانت الأنا مستندة الى الاختبار فهي قابلة التعرف ، أما اذا كانت الأنا ذهنية فإنها تنقلت من البحث المدقق فيها .  
وبما ان شخصية الانسان لا تكون متجانسة الوجوه بسبب الاختبارات الجديدة ، التي تغيرها في كل مرحلة ، حتى في كل

لحظة من وجوده ، يجد الانسان نفسه مستمراً في تغيير طريقة التفكير في ذاته وفي اعتبار هذه الذات : فهو يرى ذاته دائمة التغيير . ومن جهة أخرى ، فإن صلاته النفسية ونبواته الذاتية تتغير . لذلك فإنه لا يستطيع أن يقول « أنا » ، لأن هذه الأنا تتعدد فتُصبح أنيات تتجه الى كل صوب ومعنى . وهكذا فإن الانسان يملك أنيات يستبدل بعضها من البعض الآخر : فهناك الأنا التي تحب والأنا التي تكره ، وهناك الأنا الكريمة والأنا الحاسدة ، والأنا الوديدة كالحمل والأنا التي تحتاج وتشور . والانسان ذو الأنيات المتعددة لم يُصبح بعد إنساناً سوياً ولا يستجيب لشرط الرجولة . وللأنا مظاهر أخرى تشبه وجوهاً مختلفة : فالأنا يمكن أخذها بعين الاعتبار على أصعدة مختلفة ، منها الحياتي ، والنفسي ، والخلقي ، والاجتماعي ، والديني ، الخ . و « الأنا » تمثل الوحدة الشخصية ، مثبتة بهذا التمثيل استقلالها الذاتي . ومع ذلك فإن هذه « الأنا » لا تعبر إلا عن ذات عارضة . فالانسان الذي لا بنية ذاتية له ، يستطيع أن يقول في لحظات غير متباعدة : أنا أحبك .. أنا أكرهك ، أو أنا أعدك ... وأنا نسيت وعدي .

فما هي الذات بالنسبة الى أنا مخلصه ؟ انها لا تتعدى كائناً لا رديناً ولا جيداً ، ولا ملكياً ولا شيطانياً ، كائناً لا يبلغ

نهاية أي شيء ، فهو يملك أنصاف حسنات أفسدتها أنصاف عيوب ، كما يملك فضائل عطفتها رذائل ، وجوانب جيدة مازجتها نزعات سيئة ، وهو كائن غير مكتمل ووسط ككل العالم ، كائن بشري ، في بجمه (جانكليفيتش ، النقي والدنس ، ص ٩) .

تطور الأنا باستمرار ما بقي الانسان غير موحد ، فهي نتيجة حوادث خارجية واصطدامات تسببها هذه الحوادث . والانسان يعرف نفسه متعددأ ، ومع هذا يؤكد أنه واحد ، بحكم واقع جسده واسمه الذي يحده بالنسبة الى الغير . والأنيات المختلفة تتتابع في الانسان ، وتستند الى الاختبار ، وتغطي جزئياً ، وتعارض ، وتثبت وجودها ، وتتكسر وجودها . غير أن الوثوق الحاد بهذه الأنا المتعددة هو سبب من أسباب وحشة عميقة .

إذن ، يمر الانسان في مراحل موقته ، والخطأ كائن في اعتباره أنها حالات يعتقد ذاقه مركزة فيها . لذلك يقول مونتين : « أنا لا أصور الكائن .. أنا أصور المرور ، ( محاولات ، ٣ ، ٢ ) . والانسان ينسى مختاراً أن قدره البشري هو أن يمشي دائماً ، وأن عجزه الأبدي عن الوصول الى حدود

---

(١) انظر أوسبالسي ، الانسان وتطوره الممكن ، ص ١٧ - ١٨ .

قدرته هو الاشارة الى عظمته وليس الى بؤسه ... فالانسان هو هذا اللانهائي الذي يفرّ من ذاته ، فراراً يجعله دائماً أكبر من القدر الذي يعرفه لنفسه ، ودائماً فوق ما يعمل ، على حد ما يقول لانيو ، في كتابه « دروس ونبذات مشهورة » ص ١٤ - ١٥ .

وهكذا يولد أفراد ، ويتكاثرون بسرعة ، ويأكلون ، ويشربون ويموتون دون أن يحققوا شرطهم في وجود الانسان . والتقصيرات ، في هذا الصدد ، ذات مصادر مختلفة : فالرغبات غالباً لا تتجاوز الكيس اللحمي ، والأعصاب ، والعضلات ، وحسن نظام الأعضاء الوظيفي . والرجال الراضون عن أنفسهم لا يتمنون ، أو هم لا يعرفون كيف يتمنون أن يتغيروا . أما البعض ، الملتصقون بالعالم المحسوس ، فإنهم غير جديرين بتحقيق الشرط الانساني . وهناك ناس أصبحوا أشياء ، دون أن يموتوا ... وهذا هو تعوّد قائم بين الانسان والجمان ... وهذا موتٌ يتمطى على مدى حياة ١ ؛ وتستمر الحال هكذا ما بقي الفرد غير بالغ ذاته الغائية ، فيبدو قائماً في انسان مصطنع تحت شكله البشري .

---

(١) انظر سيمون ويل ، اليلبوع اليوناني ، ص ١٦ .



في هذا الصدد ، يعرض علم التحليل النفسي طرقاً مختلفة لمواجهة الأنا . والفيلسوف لا يعرف ، اليوم ، أن يبقى غير مكترث بهذا العلم الذي تتسع هالة تأثيره يوماً بعد يوم . على كل حال ، ليس المعلم الروحي طبيياً نفسانياً ، ومعرفة الذات ليست نتيجة لتحليل نفسي . هذه المعرفة تفترض فرداً متزناً ، أو ساعياً ، على الأقل ، للتمسك في اتزانه ما استطاع الى ذلك سبيلاً . ومثل هذا الفرد لا يعرف أن يتصرف ، كما يقول ليوبوفيتشي ودياتكين ، فد يجر إنساناً من المضادات ، المرافقة تحركاته الغريزية ، في جهاز عضوي مبكر الأوان ، ومن النتائج غير المصنفة من التوطئات التمهيديّة<sup>١</sup> . فالوعي وما دونه ، هما من المعطيات المظلمة<sup>٢</sup> . والباحث عن معرفة ذاته ليس في وسعه أن يحتقر لا وعيه ولا ما دون وعيه ؛ فدروس فرويد ويونغ تستطيع أن تلقي ضوءاً على بحثه وما فيه من احتمال . وكذلك ، ليس في وسعه أن يغفل اندفاعات لا وعيه العميقة ، التي تتيح له ، بصورة أفضل ، أن يمك بزمام قدره الخاص ، وأن يوقع وجوده إيقاعاً ملائماً وأن يفهم معنى تطوره .

---

(١) انظر اندره خرين ، أبواب اللاوعي ، في مجلة اللاوعي ، باريس

١٩٦٦ ، ص ٣٤ .

(٢) انظر بول ريكور ، الوعي واللاوعي ، انظر ص ٩٠٩ .

وكل انسان يصطدم دائماً بما دون وعيه ، ومع ذلك ، فهو لا يعرف أين يجعل له مكاناً مضبوطاً ؛ لأن وعيه يدسره إذ يحكم عليه بأنه ذو رؤيا مظلمة مبهمه ، لا يتناولها مقياس العقل ، وبأنه مفرط في ديناميته . أما يرغبون فيقول : بما ان الانسان لا يعرف أين يجعل مكاناً للاوعي ، فهو ، لذلك ، كثيراً ما يُخدع في صحة وجوده فيحاول نكرانه . وفي نظر لابلاش ، أن اللهجة التي يتكلم بها الوعي وما يسبقه تزيد في نشاط اللاوعي دائماً . فإذا لم توضع معرفة الذات لا في النظام النفسي ، ولا في النظام الخلقى ، فلا بد ، مع ذلك ، من الرجوع الى المنطلق في الأمر ، ومن امتلاك أدوات جيدة ، بصورة ما ، قبل محاولة المغامرة لمعرفة الذات .

### طرائق وتقنيات

أن تصير رجلاً فتعرف ذاتك ، يعني أن تأخذ ذاتك مأخذ الإدراك ، وأن تتعلمها كهنة . وتحقيق ذلك يبدو كأنه فتح ، والباحث الذي يتناوله يجب أن يحيا طبقاً لبعثه ، وإلا فليس في استطاعه أن يتعرض له . وبفضل بعض التقنيات وبعمونة معلّم ، يعني مربّ نفسيّ سبق فاكتشف معرفة ذاته ، يمكن

أن نجتاز بعض المراحل ؛ وفوق ذلك ، لنا بالنصوص المقدسة  
الكثيرة الاختلاف ، والأساطير الميثولوجية ، والخرافات ،  
أقاصيص ذات مغازٍ اختبارية تقدمها للإنسان السائر نحو ذاته .  
وبالرجوع الى ما تقدم ذكره ، يستطيع هذا الانسان أن يضع  
نفسه داخل التطور الذي يتابعه . وحالات . من الأنواع التي  
ذكرناها تعتبر ذات أهمية كبيرة .

هذه التقنيات تتناول الجسد والنفس . وهي تخاطب أيضاً  
الذهن الذي يصنّف مستنداً الى الأدلة العقلية ، والفطنة التي  
تختار وتقرر ، وتخاطب الضمير الذي يتهدب ويبني نفسه على  
أساس من استجابة الانسان لشرطه الخاص . وإذا كانت هذه  
الوصفات التقنية قادرة ، بصورة أكيدة ، على إعداد الانسان  
للقاء مستقبلٍ مع ذاته ، فانها لا تعرف كيف تؤمن له نهاية  
غائية . ومع ذلك ، فان الطرق المعتمدة تقوم بدور هائل على  
صعيد النباهة والاحتمال المشترك بين النفس والجسد . أما  
المسلكيات الجسدية والذهنية ، فانها تليح المجال للحصول على  
رقابة جسدية سواء أكان المقصود تصميماً سلوكياً أو تصميماً  
على جانب من الذكاء والدهاء . والجسد هو الوسيط الذي يؤمن  
وجود القوى ، والتحرّكات الداخلية ، ويبقى حاضنها الدائم ؛  
وخارج أوضاع الجسم المختلفة ، التي تحدّد تغييراً في القوى .

المحددة نوعيات الافكار والاحتمالات ، يستطيع الرجل ان يمارس رقابة تتناول إيقاع التنفس والقلب . والطرق التي تمثلها اليوغا والهاتاوغا ، الممارستان في الهند ، أخذ استخدامها في أوروبا ، يزداد يوماً بعد يوم . ففي نظر الهندوس ، الأنا تشبه عقدة ، وهذه العقدة تتحلل ، فالجسد يعود الى مادته الكونية ، والعنصر الذهني الى الذهنية الكونية ، الخ . والانسان الموضوع يفهم كم هي وهم خادع هذه الذات التي يملكها . واليوغا تستطيع أن تصبح سيّدة جسده وذهنه ، ولكنها تستطيع أيضاً أن تتنكر للانفتاح الروحي المائل في وجوده .

وهناك التقليد الروحي المستند الى فلسفة ظهرت في جبل أثوس ١ ، الذي عرف عهده الذهبي بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر ، فهو تقليد تميّز بمنزلة خاصة بين التقنيات النفسية الجسدية ، والبحث الرئيسي الذي هو إيجاد مكان القلب ، واقامة سلام داخلي فيه يكون ينبوعاً لحياة روحية ، وهكذا يتم الاتجاه بالنفس نحو النعمة . وهذا السلام لن يكون فاقد الفعالية ؛ بل على العكس ، سيكون سيّداً في فعاليته ، ولكنه

---

(١) جبل في مقدونيا اليونان ، عرف بالأديار التي تأسست فيه في القرن العاشر ، واستقلّ رهبانه الاوٲوذكس استقلالاً ذاتياً عن البرٲان . مشهور بخطوطاته وأعماله الفنية . ( المترجم )

يحتمل أن يثير معارك لا تنتهي ، وهذا ما يتضح جيداً لقارىء  
أقاصيص « صلاة الجمال » . لذلك فإن الرياضة الروحية تلمب  
دوراً هاماً على صعيدى الجسد والنفس ، وهي ليست غاية ،  
ومهمتها تحرير الانسان من قيوده والحوائث التي تعترضه ، كما يفعل  
ذاهبٌ في سباق في احدى مراحل شوطه إذ لا يكتفي بأن  
يؤمن الاستمرار في سباقه ، ولكنه يتنبه لغدائه وأهوائه  
ويطلق كل ما يمكن أن يلحق ضرراً بمهمته ، وبالتالي ان يجعله  
في وضع سيء بطبيعته . ورواد الفضاء كابدوا الكثير من  
التهيو الصعب قبل أن يستطيعوا السير في الفضاء بعض دقائق ،  
وهكذا فان العبور من الغلظة الى المرونة ، يحتاج الى إعداد  
طويل الأمد ، يعني العبور من الصعيد الجسدي الى الصعيد  
الروحي .

والتقنيات التي تلائم النباهة تقتضي استقراراً في النظرة  
البسيطة مجردة من كل طيش . وطوائف الأفكار ، والتأثرات  
التي ترافق الفكرة الشاردة كلها تتحطم أمام الصمت الداخلى  
الذي يسود ، وينزع الى ان يصبح حالة دائمة .

إن أكثر التمارين التي اشتهرت ، في ما يتناول البحث في  
معرفة الذات ، هي تمارين اليوغا . وعلى الرغم من أن هذه  
التمارين تتخالف في ما بينها ، فانها ذات نقاط تماس متماثلة ،

لأن لكل طريقة من هذه الطرق ، نشاطاً روحياً ذا انعكاس جسدي ونشاطاً جسدياً ذا انعكاس روحي . وفي هاتين الحالتين لا تستخدم هذه التقنيات دون حضور مرشد . وبسبب هذه الطاقات التي تحررها هذه التمارين ، فإنها تصبح ذات خطر مزدوج على الجسد والذهن إن هي مورست دون أية رقابة . لأن المقصود بها ليس خلق قوى جديدة ، ولكن إيقاظ قوى ما تزال نائمة .

وهوذا نحن نقدم كمثل بحثاً طويلاً محدثاً بعنوان « سرّ الزهرة الذهبية » . وقد ترجم هذا النص د. ولهم ، وشرحه يونغ ، وقدمه ميرسيا إليادا<sup>١</sup> ، وظهر مطبوعاً حديثاً<sup>٢</sup> . والطبيعة المثلى للحياة غير البادية للنظر توجد محتواة في نور القلب ، وعلى هذا النور القلبي تحاول العينان ان تستقرا عندما تنظران الى الداخل . وعند إطباق الجفون تنظر العينان مشعتين على الجو الداخلي . وعندئذ يستيقظ النور الذي في القلب ويدور في داخل الانسان . وتفتح الزهرة الذهبية ينطبق

---

(١) تجسد الشيطان والازدواج الجنسي ، باريس ، ١٩٦٢ ، ص ٥٥ .

(٢) سرّ الزهرة الذهبية أتبع بـ « كتاب دار الضمير والحياة » ، ترجمة

ليوتسي هُوا ، مع مقدمة لبيار كورون ، باريس ١٩٦٩ .

على الاختبار الضوئي . وهكذا يجسد الانسان الموضوع نفسه  
مُساقاً الى اكتشاف ضوئه الخاص ، يعني ذاته .

والقلب هو عبارة عن العضو المرين الذكي ، ففيه تولد الحواس  
الداخلية وتتحرك نامية . و عندما يكون القلب مرناً ذكياً  
يكون التنفس كذلك ، لأن كل حركة صادرة عن القلب تولد  
طاقة تنفسية ،<sup>١</sup> فالقلب والتنفس هما في ترابط وثيق ،  
وإيقاعهما يتراققان في بحث عن الضوء الذي ينظم الحواس  
الداخلية . و كما ان العين نورها فللأذن نورها أيضاً . و اذا  
كان نور العين متحداً بنور الشمس والقمر في الخارج ؛ فإن نور  
الأذن هو الزرع الموحد للشمس والقمر في الداخل . وهذا الزرع  
هو ، إذاً ، النور ، في شكل مبلور ، . وتفهم ( الأذن )  
ووضوح ( العين ) هما متماثلان في كونها نوراً .

في عُرْف الآباء اليونان ، الأذن ترى وتلمس ؛ وكذلك  
العين . وفي هاتين يوجد الحستان الأساسيان اللذان فيها توجد  
الحواس الأخرى . وفي الانطواء على الذات ، وفي السكوت  
يتاح للأذن وللعين أن تتوسعا ، إذ تصيران شيئاً فشيئاً أكثر  
مرونة وذكاء . ولهذا قيل إن القلب يسمع ويرى ، ويتذوق  
ويخفق ، وإن له حاسة شم .

(١) سرّ الزهرة الذهبية ، ص ٧٩ .

هناك طريقة أخرى تنتهي بنا الى التأمل يقترحها علينا حوار « المأدبة » . ففيها بقي سقراط واقفاً ، مدة ساعات ، وقد رأيناها فيها ، نهراً وليلاً كاملين ، ساكناً ، متمركزاً ، غير شاعر بالبرد ولا الجوع : كان يتأمل . فهل كان يستخدم تقنية الانطواء على الذات ؟ الأمر ممكن إن نحن صدقنا ما جاء في « الأمراب »<sup>١</sup> . ففيها يطلب الشيخ ستريبيسياد من سقراط أن يعلمه . فأشار عليه سقراط أن يتمدد على جلود الحملات مبسوطة على الأرض . فالقصد ليس الاستراحة ، ولكن السهر بكل نباهة . وقد توجهت هذه النصائح في صيغة أنشدتها جوقة « الأمراب » ، ثم تلاها سقراط نفسه في الشكل التالي :

جدت في فكرتك ، واعتبر ، وتلفتت الى كل ناحية منطوية على ذاتك . واذا وقعت على صعوبة فاركض فوراً الى نقطة أخرى .

يطالب سقراط بالشجاعة ويوصي بها ، ويطالب بتغطية الرأس ، وبممارسة نوع من اللشور أو القشر في غمض فكري مرين ذكي ، وأن تفرق الأجزاء ، وأن تمتحن الأشياء . ويوصي أيضاً بالأل نبالغ في التمركز ، وبالأ نعيد أبداً فكرتنا الى

(١) تمثيلية ساخرة لـ أريستوفان ( ٤٢٣ ق. م . ) خص بها مؤلفها سقراط بلذعات حادة . ( المترجم )



ذاتها ، فيقول : « أتركها قليلاً في الهواء كأنها زيز أمسيك  
بخط رُبِطت به إحدى أرجله »<sup>١</sup> ( ٥ ، ٧٦ ، ١٠٩ ) . والشيء  
الأساسي ، في هذه التقنية ، يُختصر هكذا : الانفصال عن العالم  
المحسوس لكي يستغلق الإنسان على ذاته في حياة داخلية تتكاتف  
شيئاً فشيئاً ، ويزداد نقاؤها تدريجياً ، لكي يمضي في بحثه من  
الخاص إلى العام .

ولنحفظ أيضاً هذه الفقرة الغريبة لديكارت ، مأخوذة من  
أول « تأمله الثالث » ، والتي يعرض فيها طريقة خاصة بالتمركز  
الذاتي :

« سأغمض الآن عيني » ، وسأسد أذني » ، وسأزيغ كل  
حواسي ، وسأحو من فكري كل صور الأشياء المتجسدة ، أو  
على الأقل ، سأشهر بأنها كلها باطلة خادعة ، إذ لا حول لي على  
إجراء ما توهمت صنعه ممكناً ، وهكذا سأكتفي بمحادثة ذاتي ،  
وامتحان داخلي ، وسأجتهد في أن أزداد معرفة بذاتي . شيئاً  
فشيئاً ، وأن أصبح أكثر أهلية مع نفسي »<sup>٢</sup> . وأردف قائلاً :  
« لقد عوّدت نفسي ، في هذه الأيام الماضية ، أن تفصل ما بين

---

( ١ ) انظر كل هذه المسائل والآراء الثمينة لـ أ . - ج . فيستوجيار ،

« تأملات وحياة تأملية » ، على طريقة أفلاطون » ، ارجع نفسه ، ص ٦٩ .

( ٢ ) « التأمل الثالث » .

ذهني وحواسي .. حتى انني صرت قادراً الآن على أن أتحوّل  
بفكري ، دون صعوبة ، عن الأشياء المحسوسة والمتصورة .  
وانه لمن المستحسن أن نقارب من هذا النص الصفحات  
الأولى من « محادثات ما وراثية » لـ مالبرانش ، عندما أراد أن  
يشرح تأملات ديكرت ، في « مدخل الى علم الظاهرات »  
لـ هوسير ، تكلمت أولاً على هذه الضرورة لمن أراد أن يصبح  
فيلسوفاً ، وهو أن ينطوي على نفسه ، داخل ذاته ، وأن  
يحاول قلب كل العلوم المقررة حتى اليوم ، وأن يحاول بناءها من  
جديد .

وعند انطلاق هوسير ، من هذا الواقع ، ذكر به « عودة  
قانية الى الذات » يعني « العودة الى الذات بتفكير نقى » ؛  
وطريقة الشك هنا ملاممة ضرورية . وأخيراً ، نذكر بأن  
مين دي بيران أبدى ارتياحه ، مشيراً الى أي حد تستطيع  
بعض الحالات أن تعدل في الاحتمال الانساني ، عندما كتب  
ما يلي :

يعرف المتؤمنون والصوفيون جيداً بعض الوسائل الخاصة ،

---

(١) انظر ادمون هوسير ، « تأملات ديكرتية » ، « مدخل الى علم  
الكائنات » ، ص ٢ .

في بعض الحالات ، للتعديل في النفس أو في العضو ، بصورة  
تغير طريقة الاتصال ، ولكن هذا كله ما يزال مظلماً ، وعرضة  
لطاقفة من الشكوك وتجاوزات المعتاد<sup>١</sup> .

ولا بد من التذكير أيضاً بقول لديكارت جاء فيه : انه  
بفضل معرفة الانسان نفسه ، يصبح طبيب ذاته الخاص . ونحن نعلم  
ان ديكارت تحاور مرات كثيرة و كريستين الملكة الاسوجية ،  
ولمسه أخذ عنها هذا الرأي الذي يرويه مرتين . وفي الواقع ، ان  
الملكة كريستين كانت تقبل هذه الكلمات لـ تيبار ، الذي  
تعرفه بواسطة سوياتون ، القائل :

ان كل انسان قضى ثلاثين سنة من حياته يجب عليه أن  
يكون الطبيب الخاص بذاته .

وفي رسالة وجهها ديكارت الى الماركيز نيوكاستيل ، أوجز  
قائلاً :

... إنه لا يوجد إنسان يملك قليلاً من الفكر ، ولا يستطيع  
أن يميز النافع من الضار بصحته ، شرط أن يتعهدا بالعناية ،  
فلا يعرف أكثر الأطباء علماً أن يعلوه أكثر مما يعرف عنها .  
نضيف الى ما تقدم قول موتين في محاولته « في الاختبار »

---

(١) « محاولات جديدة في الانثروبولوجيا » ، النص الثاني ، ص ٣٠٦ .

إذ يورد كلمات لـ تياراً هذا نصها : الانسان الذي يراقب نفسه دائماً يعرف ماذا يمكن أن يكون الاحتمال الجسدي الذي يجب أن يتوفر له لسلامة صحته ، ويعرف أينما المسلكية التي تلائمها ، والهامش الإفراطى الذي يُجيزه لنفسه دون أن يسبب لها ضرراً .

### المربي الروحي

في حدود بحث الانسان عن نفسه ، يخاطر بأن يمسك ذاته في نطاق دنسها ، ان هو رفض تعليم الحكماء ، الذي يقدم له نقاط أدلثة تتيح له أن يقود خطاه في طريقه . ولقد جاء في كتاب « النقي » والدانس ، لفلاديمير جانكيليفيتش ، في الصفحة السابعة منه ، قوله : « ان الدانس وحده في وعوثة مسالكة ولا إستوائها ، وفي مفارقاته وأخلاقه يقدم بماسك لمعرفة . » وإذا كان المهد الخارجى له أهميته ، فذلك لأن الانسان غالباً ما يكون عاجزاً عن التماس بذاته . ومعنى توفرت هذه العلاقة فإنه يعلم ما يجب أن يفعل . امنا أن يحتفظ الانسان بعلمه له مدة وجوده كلها ، فهذا يعنى تقديمه شاهداً على ضعفه وبقائه

(١) انظر في هذا الموضوع ب. - م. سكوهل ، « دروس افلاطونية » .

باريس ، ١٩٦٠ ، ص ١٦٨ .

قاصراً دائماً . فالشجرة الفتية تحتاج الى سند ، وإذا تترك الى جانبها بعد أن تكبر فمعنى ذلك نكران لقوتها وقدرتها . والمهتد ، متى كان مريباً روحياً ، فإنه يوجه : دون أن يملك القدرة على إضاءة عين لأعمى ( انظر ، الجمهورية ، ٧ ) ؛ ولكنه ينطلق من العضو الكائن ، فيتمنى أن يُديره الى الاتجاه الذي يلائمه . ولذلك فإن المربي ينسحب عندما يصبح المربي في غنى عن سماع دندنة زنبور ، وعن تلقي صدمة زلزلة لكي توقظه أو تشل عزيمته . إنه يعلن للغير ما يفكر به ، وما هو ، وما يستطيع أن يصير ؛ فكان المربي كان مرآة المربي ، أو هو ، في شكل آخر ، ضميره الحي . ونوره يلتقي بالنور الوهمي الذي يحمله في ذاته الانسان المتعرف نفسه .

ولكن العلاقات بين الموجة وبين الموجة يمكن أن تكون صعبة ؛ وفي هذا يقول سقراط :

رأيت أناساً بلغ بهم الغيظ مني درجة جعلتهم مستعدين لعضتي ، وذلك لأنني انتزعت منهم رأياً تجاوزوا فيه حد المعقول . وهم لا يصدقون أنني لم أفعل ما فعلت إلا لأنني لا أسمع لنفسي البتة أن توافق على الخطأ ، ولا أن تخفي الحقيقة .

(٢) انظر في هذا المجال زوجيه غوديل ، « الاختيار التعريري » ،

باريس ، ١٩٥٢ ، ص ٢٩ .

المهدون الحقيقيون عددهم قليل جداً، ولذلك نرى الأفضل  
ألا نحاول البحث عنهم أبداً ؛ ومن رأى أنه في حاجة إليهم  
فليطمنن إلى التقائهم دائماً في طريقه . والمعلم الرديء ليس أقل  
خطراً من الطبيب الرديء ، فهذا وذاك يستعجلان الموت ،  
جاعلين من الانسان الموضوع جثة فاقدة الحياة . وفي هذا تقول  
سيمون ويل : « إن انساناً أعزل عادياً يصوب إليه سلاح  
عسي جثة مأمدة قبل أن يمسه السلاح »<sup>١</sup> . وقد سبق لها  
أن قالت :

من القدرة على تغيير إنسان إلى شيء بإحداث موته تستحدث  
قوة أخرى ، فيها من عجيب التأثير ما يختلف كل الاختلاف عن  
تلك التي تجعل من شيء انساناً يبقى حياً<sup>٢</sup> .

ولقد كانت الإدارة ، في العصور القديمة ، ذات دور هام .  
وفي هذا الصدد ، يتعرض نيسياس لسقراط ، وهو يثير في مخاطبه  
امتحان حياته ؛ ف « الأسراب » تصف سلوك سقراط قائلاً  
لتلميذه : « لننظر ، إكشف لي عن مميزاتك » ( ٤٧٨ ) ،  
وهكذا ألزمه أن يتوسع في انفتاحه الذهني . والفيلسوف ،  
بقدر ما يكون حكيماً ، يؤمن دور المدير : كما كان افلاطون

(١) « اليلجوع اليوناني » ، باريس ، ١٩٥٣ ، ص ١٣ .

(٢) المرجع نفسه .

الى جانب دنيس الثاني السرقسطي . وابقور كان ، في الوقت نفسه ، طبيباً روحياً . ووسيطاً بين الآلهة ومنهم في عهده . أما أبيقور فقد كان يُدير تلاميذه على طريقة فيثاغوراس ، فكان يغربل أفكارهم وأعمالهم . وأما سينيكا فقد كان يعتمد امتحان الضمير ؛ و « تأملات » مارك أوريل تستخدم كدليل مرشد . فكان التلميذ المُعدّ يصبح معلماً ؛ وهكذا كان افلوطين بالنسبة الى بورفير ، وبورفير بالنسبة الى جامبليك .

والسؤال المطروح الآن ، هل يحتاج كل الناس ، المهتمين بمعرفة ذواتهم ، الى دليل مرشد؟ عن هذا السؤال يُجيب سينيكا بما يلي :

بعض الناس توصلوا الى الحقيقة دون مساعدة أحد ؛ فكان أن اختطّثوا لنفوسهم الطريق ... وآخرون احتساجوا الى مساعدة ؛ فإنهم لا يتقدمون إن لم يسر أحدٌ قدّامهم ، ولكنهم يعرفون أن يتبعوا ... وهناك فئة من الناس ... لا يكتفي أحدها بالدليل المرشد ، لأنه تحت السيطرة المضادة ... فيستدعي عريفاً ، أو على الأصح ، مُقْبِلاً من عثاره ( لوسيليوس ، ٥٢ ، ٣ - ٤ ) .

وفي أثر المعلم يقول إبيقور ، وقد تراءى له ابن ذكرى المعلم تبنى ماثلة أمام التلميذ : « إن ذكرى المعلم دائماً الوجود

أمام عيني التلميذ فكأنه يجيا تحت مراقبة نظره ... » ( المرجع ذاته ، ١١ ، ٨ - ٩ ) .

وكان من تأثير هذه العلاقة أن ورث الرهبان الشرقيون صفة « الأب الروحي » يقوم بموجبها بدور مراقب الضمير ليس بالنسبة الى الكليريكيين فقط ، بل بالنسبة ، أيضاً ، الى العلمانيين . وعند آباء الصحراء ، يكون التلميذ ، في الغالب ، خادم من اتخذته في عهدته روحياً . والمعلم ، الخبير في الفن الروحي ، لا يكون بحكم الضرورة موسوعياً ؛ فعلم الله يكفيه ليقوم بدوره . أما في الغرب ، فإنه على الرغم من أهمية المسؤولين ، لا تلاقي هذه الأجيال الروحية التي تتغلب على الأجيال المادية ، كما هي الحال في الشرق ، وهي حالة لا تقتصر على المسيحيين ولكنها تتمدد ام الى المسلمين .

والصوفي يعتبر نفسه كمنفي ، وهو يبحث مجدداً عن مرشد روحي يرسم له طريق العودة نحو مصدره . ومهمة النبي قائمة في « فتح السبيل الى الحقيقة الروحية المنشودة » . وبين المهدي والهادي ( الشيخ ) الصلة وثيقة ولا يمكن أن تتحل ، وعند الشيعة ، تقوم العلاقة مع الإيمان الذي هو المعلم غير المنظور . وطريق العودة هذه لا تتحقق باعتبار إله مشترك ؛ فالإلهي منقطع عن الشرك ، والرجوع يعني ملاقات السيد الخاص ؛



والفردية الروحية دائماً مؤمنة . وهذه الفردية لا تتمين في «الأنا الاختبارية المتمثلة في - النفس الأمارة - النفس النازعة الى الشهوة التي لا تعرف وازعاً ، ولكن ... في «الروح القدس» في الانسان ، في الأنا العليا السابق وجودها ، والتي يجب تحريرها أو استعادة غزوها» . وكل كائن يعاني في ذاته وجوداً إلهياً بصورة خاصة به ؛ وكل توحيد إلهي يستند الى القدرة الشخصية .

ففي الهند ، كل فرد يتمنى ان يتوصل الى التحرر ، يعمل بتعليم حكيم . ومعلمو الهند الكبار قد أعيدوا أجيالاً من التلاميذ . فحب الغير المستيقظ لا يكرس للعزلة والتأمل فقط ، ولكنه يتحرك بالشفقة أيضاً . والبوذيستاقاً<sup>١</sup> تستبعد امتلاء النرفانا وحلاوتها لتكرس ذاتها للغير . فحب الغير « حارس من لا حماية لهم ، ومرشد للمسافر ، ومركب ، وبئر ، وينبوع ، وجسد لمن يبحث عن الضفة الثانية»<sup>٢</sup> . وحكمة الهند تتمتع بشهرة كبرت الى حد أن كثيراً من الأوروبيين يتركون وطنهم

---

(١) حالة من الكمال ، عند الهنود ، إذا بلغها الانسان أعني من التمتع . ( المترجم )

(٢) ل. دي لا فالتيه - بوستان ، «البوذية» ، باريس ، ١٩٢٥

للتابعوا مدة سنوات ، أو مدة حياتهم كلها تعلم أحد الحكماء  
الذين قلّ أمثالهم جداً في أوروبا ، أو قلما يعثر لهم على مثيل .  
المهم هو أن نعلم ، لماذا البحث عن معلّم ؟ الجواب : يجب  
أن يكشف عن أسباب انتظاره صفاء لا يبدّ من وجوده . فهل  
هي الحاجة الى لفت الانتباه الى الذات واحتباسه عليها ، أم هو  
الضعف الذي يتمنى التعزية ، أم هو فقدان القدرة على تحمّل  
العزلة الخاصة ؟ هذه الأسباب المختلفة يجب أن تتحصّى بحزم  
وشدّة . والحالة الوحيدة ، التي فيها يُفترض وجود ممدّ ، هي  
حالة اختيار طريق تحرّر ، كما قرأى في مفهوم معنى البحث  
عن المطلق ، أو عن الكمال ، وهذا ، كما يجب أن يُفهم ،  
لا يعني ، بحكم الضرورة ، طريقاً دينية . فعلى صعيد البحث  
الداخلي ، نرى ، لمن ألزم نفسه السير على بحر مجهول ، أن  
ينتصح بإرشاد إنسان ذي خبرة ملموسة ، عارف بعجائب  
مغامرة من هذا النوع ، ملّمّ بدفع مخاطرهما . وعلى كل  
حال ، ان خبرة الممدّ الشخصية تبدو غير كافية ، ومن محسّنات  
الموقف أن يستفيد من تعرفه تلميذه الداخلي في عهده ،  
تعرفاً دقيقاً ، وإلا فإنه يجرّ تلميذه الى طريق لا ثلاثه . ولا  
يقتصر تعرف حال التلميذ على فتح قلبه . فهو أعمى بخاطر بأن  
يخضع نفسه في سعيه الى معرفة ذاته . وبما انه سيء المعرفة

بذاته ، فكيف يستطيع أن يصف هذه الذات وصفاً صحيحاً ؟  
ونذكر ، هنا ، أن "تحرّك"ه واقع دائماً تحت تأثير حوادث  
خارجية كان يزج نفسه فيها ، وكأنه دولا ب يدور في الفراغ ،  
حق أدرك ، على الرغم من حسن إرادته ، أنه لن يتمكن من  
الإمساك بنقطة معينة في ذاته . فمن حقّ الممهد على تلميذه أن  
يكشف له عن كل شيء بصدقٍ كامل ، دون أي تحفظ أو خجل ،  
وَألا يُبقي سراً مكتوماً . أما المعلم فعليه أن تكون في  
مؤهلاته هبة قراءة القلب . وهبةٌ روحية كهذه جاءت هبة  
ميّزة للمعلمين الأكفاء . وإذا كانت هذه النعمة مفقودة ، فعلى  
المعلم أن يراقب تلميذه ، وأن يسأله ، وأن يجادته ، وأن يمزق  
بتأن الغشاوات التي تغطيه عن تحفظ أو تهيب . أما إذا كانت  
قاعدة كل اتجاه بمثابة غيرها من القواعد الاتجاهية ، فإن العلاقة  
بالتلميذ تكون علاقة محض خاصة باعتبار المزاج ، وبمجمّل  
الترعات والعواطف ، يضاف إليها قدرة التلميذ الروحية . ولا  
شك في أن الاتصالات البسيطة المليئة بالهبة تخلق الثقة وتتيح  
للتلميذ أن يشحن التعليم الذي تلقاه بطاقة دينامية .

وعندما يستطيع المعلم أن يكتسب معرفة دقيقة بتلميذه ،  
فإنه يتمكن من أن يتبعه عن كثب ، ومن أن يقوده دون أن  
يحتاج إلى إظهار هذه القيادة . واجتياز المعلم هذا الشأ يفترض

أن يكون التلميذ حقاً ملتزماً بالطريق المختارة ، وأن يكون قد توصل الى نوع من الاستقرار . فإذا حدث انفصال مفاجيء وقع التلميذ في مصاعب مأسوية لا يستطيع استبـاق النظر في عواقبها . وفي الواقع ، لا يستطيع غير قلّة من الرجال أن يديروا تحريراً شخصياً منقوصاً ، بصبر يدركه الملل أمام الضعف والاستعداد الناتج عن فقدان الاتزان ، وفقدان التفكير ، والوقت ، والمثابرة . ورجل الواجب الضميري ، الذي لم يتجاوز النطاق الخُلقي ، لن يكون غير مرشد رديء ، لأنه ما يزال ينتسب الى عالم الازدواجية . والذي يستطيع أن يكون مرشداً مَهْداً هو الانسان ذو المستوى المنسوب الى «الضغط المعنوي» ، ضغط الروح .

في استطاعة الرجال والنساء أن يقوموا بمهمة « الأب » أو « الأم » الروحيين . وإذا كانت أكثر الرصاصات بدائية يجب أن تحترم ، كأن تُدخل الازدواجية الحياتية ونعطيها أهمية ، فإن هذا يُعرض لإفساد كل شيء . ومن يجب أن يَأْتَمَنهُ التلميذ على نفسه ، ليس رجلاً ولا امرأة من هذا النوع ، ولكن المؤهل لهذا الإثتان إنسانٌ نوراني له من شفافيته ما يؤتي وضوحاً ليس له في حبه ذاته . أما المعلم الذي يقف جنس تلميذه حائلاً دون فهمه ، أو التلميذ الذي يقف جنس معلمه الروحي حائلاً دون

استيفاء الوضوح ، فإنها يضمن نفسيهما على صعيد من الازدواجية التي لم يبقَ لها من مكان لسوء نوعيتها . وفي مثل هذه الحال نجد المعلم والتلميذ يُفسدان كل اتصال أو تبادل علاقة بضياح حريرتها . فالإدارة التي يجب أن تتركز ، في أمرها المشترك ، لا تكون إلا فوق الاعتبارات الجسدية ، وإلا فمن المفضل ألا تكون ؛ لأنها إن تعرضت أصولها فلن تعطي غير رديء الثمار .

والمعلم الممهد الأفضل ، أو على الأصح المعلم الممهد الحقيقي الوحيد ، هو ذلك الكائن في ذات الانسان . إذ لا وجود لمركز ، ولا لمكان حقيقة ، خارج ذات الانسان . فالمرء يستطيع أن يأتي بعلمين من الخارج ، وأن ينصرف بكليته الى قراءة نصوص متعددة وأن يبقى ، مع ذلك ، في جهله . فالهمم بالنسبة إليه أن يطرح ، في ما بينه وبين نفسه ، السؤال الأساسي وأن يصغي الى الجواب . وعندما يسمعه ، يكشف ان بختاره الحقيقي هو داخل ذاته ، في هذه السفينة المقدسة التي أسماها دانتة الجهاز السري اللاقط . من هنا تتأتى طاعته الداخلية ، هذه الطاعة التي أجادت الكلام عليها سيمون ويل ، إذ قالت : انها المستجيب لسبق نظرة عميقة .

هدف التعليم هو تعلم سكوت الحواس والأهواء ، ومراقبة الخيال بغية التوصل ، قليلا قليلا ، الى القطاف العميق الذي

يسمح بتمرين التباهة تجاه الحقيقة الداخلية . فيصبح التفكير والتباهة توأمين ، أو ما هو أفضل ، على حد قول لينتز ، في « محاولات جديدة » ، وقد أقام الدليل : التفكير والتباهة يحدد واحدهما الآخر ، فالتفكير هو التباهة لما هو في داخلنا . وبالانفتاح على الحقيقة الداخلية ، يفتح الإنسان على ذاته ويكتشف معلمه الداخلي .

وسواء أقبلنا أم رفضنا هذا « المعلم الداخلي » ، على اعتبار أنه صوت إلهي داخلي أو أنه صوت قدر متحكم يعطي أوامر ، أو أنه صوت الضمير ، فإنه يبقى ان كلاً من هذه الأصوات يملك ، في حد ذاته ، القدرة على أن يأخذ في الناس بهذا الحضور .

ولقد أطلق سقراط على قدره هذا أسماء مختلفة ، فقد سماه : « شيئاً شيطانياً » أو « شيئاً إلهياً » ؛ غير أنه يستخدم دائماً في شكل لاشخصي ؛ فهو إلهي داخلي يعطي إنذارات ، معبراً عن ذاته بصورة زاجرة ، مظهراً ، في الغالب ، شكلاً لا يُرَدّ ولا يقهر . في أثناء محاكمته ، وبحضور قضاة ، أكد سقراط حقيقة هذا الصوت الداخلي الذي لاحقه دائماً . لقد أثبت وجوده وبرره حتى امتحانه الضميري الأخير ، وكان يشمر بارتياح عميق وليد طاعته لذلك المرشد الداخلي في

انسانه . وهناك آخرون أكدوا مثل هذا : فجورج باستير  
كرّس صفحات كثيرة لهذا الصوت السري<sup>١</sup> ، وف. أجير ،  
بعد ان امتحن الكلمة الداخلية قال ، في صدد الكلام ، على  
هذا القدر السقراطي لهذه « الحوادث الضميرية » ، إنها تمثل  
تعبيراً داخلياً ، عندما يتميز بعضها عن البعض الآخر ، ما لم  
تكن حيوية النفس كبيرة جداً الى حد أنها لا تسمح بتفسير كل  
شيء<sup>٢</sup> .

هذا الصوت الضميري ، وهذا الاله الداخلي نجدهما على  
الصعيد الديني الأسامي عند مالبرانش . فموضوع « المعلم  
الداخلي » الذي لمح اليه إنجيل يوحنا ( ٩٤١ ) قد عُنِي بشرحه ،  
بصورة خاصة ، كليان الاسكندري ، وخاصة أوغسطينس ،  
ولكنه مع مالبرانش اتخذ بُعداً جديداً . والمهم هو أن يدخل  
الانسان نفسه وأن يصفي اليها : هكذا علم « الإبن » تلميذه ،  
وإذا لم يتلق الناس تعليماً مماثلاً ، فإن هذا التفاوت ناتج عن  
اختلاف تباهتهم : فكل منهم يتلقى وفاقاً لطاقته . من هنا  
تولدت ضرورة الاستمرار في الاستفهام من الحقيقة الداخلية ،  
واتسّاع تعليمها . ففي السكوت والاعتزال ، نحصل على الجواب

(١) لحظة سقراط التاريخية ، باريس ، ١٩٣٩ ، ص ٢٣٣ .

(٢) الكلمة الداخلية ، باريس ، ١٨٨١ ، ص ١٥١ .

الذي ولا يفارقنا أبداً والذي ينير ظلمتنا دائماً. انه يتكلم بصوت  
خافت ، ولكنه صوت مسموع ؛ انه يضيء قليلاً ، ولكن  
ضوءه نقي . لا ، ان صوته قوي بقدر ما هو مسموع ؛ وان  
ضوءه ساطع ولامع بقدر ما هو نقي ؛ ولكن أهواءنا تمسكنا  
وتبقينا خارج ذواتنا ، وبواسطة ضجيجها وظلماتها ، تمنعنا عن  
ان نتعلم بصوتها ونستضيء بنورها ( من «البحث عن الحقيقة»  
٤٤٥ ) .

الانصياع للواجب هو في الأمانة لهذا الصوت ، والبعد عنه  
هو ، في حقيقته ، رفض لاتباع دعوة الذات .  
ومن أراد بديلاً جزئياً في غياب هذا المعلم فيأمكنه أن  
يجده في جمال الطبيعة ، وسكون بحيرة ، وعنف تيار ، وذروة  
ثلجية ، وصحراء رملية أو حجرية ؛ فهذه كلها تمنعنا على  
الانحطاف الى ما وراء رؤية العين ، وتعليمها هو الجمال عينه .  
وعلى هذا الجمال الممتع نجد الانسان نفسه محملاً الى مستوى آخر .

### المدارس ودورها

سواء أكان الأمر يتناول « بيوت الحياة » في مصر القديمة  
أم مراكز استشفاء فيلون<sup>١</sup> ، فإن الناس ، في كل وقت وفي كل

(١) يوناني الأصل ، ولد في الاسكندرية ( ١٣ ق.م. - ٥٤ ←



عهد ، ألفتوا جماعات محاولين أن يحيوا حياة كاملة . والخطأ  
الاعتقاد ان المقصود تناول الناس المتفوقين وأن نحوّتهم الى مرتبة  
ملائكية . فصفتهم الجذرية قائمة في تركهم كل ما هو غير  
أساسي ، بغية التفرغ للخدمة الإلهية . ولكن اختياراً كهذا  
يبدو صعب التحقيق . واذا كان كل ما يؤول الى الكمالين  
الروحي والجسدي ملائماً لتطهير الجسد ، والقلب ، والذهن ،  
فإن المصاعب تزداد نسبة إعمال الذكاء والمهارة فيها بقدر ما  
يزداد ارتفاع مستواها . غير ان المشاغل الخارجية ، حتى أكثرها  
اعتيادية وسطحية ، من مثل الاشتغال بكسب العيش ، تفصل  
الانسان عن غباوته وتعينه على أن يحقق اتزانه . والمعتزل الذي  
لا رابط خارجي له يفقد كل منفذ للخلاص وكل مستند خارج  
اتجاهه بما يفوقه . وإنسان كهذا يستطيع أن يبلغ في العمق  
أقاليم مظلمة ومضيتة لم يبلغها ناس آخرون لجهلهم إياها .

وفي استطاعتنا أن نتساءل اذا كانت المناسك الشرقية  
ومدارس الأديار المسيحية تساهم في معرفة الذات أو لا تساهم  
فالإقامات الطويلة في بعض المناسك ، وقراءة النصوص والتأمل  
فيها ، من التي تُعيد رهباناً مسيحيين ( كاثوليكاً أو ارثوذكسين )

---

→ ب.م. ) ، فلسفته خليط من الافلاطونية والتوراة . كان ذا أثر على  
الافلاطونية الحديثة وعل الأدب المسيحي . ( المترجم )

كلها تبدو غير كافية للكلام على هذا الموضوع بدقة . ولهذا فإن  
الفكر التي ستلي تمتحن المسألة من الخارج ، أي ان الامتحانات  
سيكون جزئياً .

ولقد بقيت المناسك ومدارس الأديار أجيالاً مشاتل حكماء  
وقديسين . فكانت مثل هذه النتائج تبرر وجودها وثبتت  
قيمتها . وفي مختلف هذه البيئات ، نجد ان كل شيء يعمل لخير  
الحياة الداخلية والبحث عن المطلق . لأن الانسان ، في عزله  
عن العالم ، يتهاى له اطمئنان : الى ذاته أرجح ، والى استيعابه  
المتأله أوثق . فهو يجابه شياطينه ، ويرى شفعه وجهاً لوجه .  
ورمز الصحراء ليس له معنى آخر . فهو المسكان المختار حيث  
يتكلم الله ، وحيث يقيس الانسان نفسه بالحيوانات الوحشية  
التي تجعل مأواها فيه . واعتزال العالم ليس غير الوجه الأول  
التمهيدي . فمن هذه اللحظة يتبدى العمل ، والطاقت تتجمع  
عندما تتوقف عن أن تتبدد في الخارج ، والنعمة تصبح غامرة .  
ومع ذلك ، سواء أكانت المشاركة سياسية ، أم دينية ،  
أم ذات صفة مجتمعية ، فإنها تبدي صعوبات وثيقة الصلة بوجود  
نظام أو مؤسسة . وأخطار هذه الصعوبات تكون في البيئة  
المطوقة بالجماعات الدينية أشد منها في مكان آخر .  
كل طائفة روحية تستمد معاني وجودها أساساً من يديرها ،

ومن الذي يحمل مسؤولية من هم في عهده ، روحاً وجسداً .  
وموت رئيس أعلى أو تغييره بآخر يمكن أن يتسبب بهبوط  
قيمة جماعة ، أو على العكس ، برفع قيمتها . لذلك ، تدعو  
الرعاية رئيس الطائفة الى ان يضع نفسه دائماً في وضع المتنبه  
لضعف بعض أعضاء طائفته ، الذين هم عرضة لأن يفاجأوا بأقل  
نسمة من نسيات التحرر فتتراءى لهم مهاوي الشرور . ولكن  
أفضلهم لا يبلغ بهم الثأر مبلغاً كبيراً : ولذا فهم لا يحتاجون  
الى معونة .

وهكذا فكل طائفة تتحمل ضواغط يدفع بها الى الأسفل .  
أما الطائفة الصغيرة العدد ، فانها تتجو جزئياً من هذا القانون ،  
ولكن ناصبي فخاخ أخرى يوقعونها في شراكهم ؛ ولا يخفف  
السوء غير تعارف الأفراد ، إذ يوفّر مراقبة أدق : فالغابة تملك  
الأفضلية لقدرتها على تحبئة الشجرة . ومن جهة أخرى ، فان  
العيش دائماً مع الرفاق أنفسهم يقتضي صفات قليلة المشاركة  
ليتمكن مشارك العيش من أن يتجنب كل عاطفة حسد ،  
وعداوة ، وطمع ، وإثارة .

الخطر الأساسي يكن في المعارضة القائمة بين الفكر  
والحرف ، لأن « الحرف يقتل والفكر يُحيي » .  
والأنظمة التأسيسية والقوانين المطبقة خارجياً تستطيع أن

تولد أجهزة تعمل تلقائياً ، وأنواعاً آليّة مغلدة وجامدة ، أكثر مما تولد رجالاً أحراراً وديناميين وذوي حساسة فاعلة . وليست مجردة نظامية تفرض من الخارج مجردة ببناءة حتماً ، فهناك خطر انفصال مهدد بوقوعه بين الحركات والأفكار السرية ، كما ان الناسك ينتفي وجوده ، عندما يطلق العنان لأحلامه وتخيلاته ، فيروح فكره شاردأ في عالم اعتقد أنه قد هرب منه . وفي الأنظمة التأسيسية قد لحظَ كل شيء بدقة ، حتى أنه لم يترك شيء للمصادفة . فالتقائية في خطر الإقلال من وجودها ليحل محلها الاصطناعي وكل ما ليس طبيعياً .

إن الارتباط بالحرف ، ونسيان الفكر الذي يحويه ويفوقه ، يخلق بعداً ذهنياً فاقسد المرونة بالنسبة الى الفكر . إذا ، « السبت كان لأجل الانسان ولم يكن الانسان لأجل السبت » ( مرقس ، ٢ ، ٢٧ ) . فاذا ما احتقرت هذه الحقيقة البديهية ، فكل نظرة روحية مركزة منفية . والانسان الذي لا يعمل ولا يتحرك شخصياً يمكن ان يكون ذا ضمير جيّد ؛ أما الانسان المقرور ببعد « هوائي » فعلى العكس ، لا يخضع أبداً للاصطدام بالمصاعب المتولدة من القضية المطمئنة ، وليدة قانون مادي . كما أن مدرسة تأمل أو صلاة لا تستمد قيمتها من أمانتها الخارجية الخاصة بتقليدها ، ولكن من الفكر الذي ينيرها

ويتيح لها أن تفك ارتباطها بأشكال ضاعت قيمتها بمرور الزمن على انفصالها .

إن « احتجاز » رجال ، منفصلين عن نساء ، وضع ملائم بعض وجهات النظر ، لأن الميول والشوائب الذكورية ، والاثوية تشتد حدة غليانها بقدر ما يستمر « طبخها ببطء » في وعاء مغلق . فالحياة المختلطة أكثر اتزاناً ، وهي إذا فُقد فيها الاتزان ، فإنه لا يتناول غير عدد قليل .

وبنيات الأديار ( في نموذج رياضتها الروحية ، وإعداد ناسها ) كما عرفتها القرون الوسطى في وثيق اتصالها بالجوازين التاريخي والاجتماعي ، لم تعد ملائمة أبداً العالم المعاصر ، وانسانه الجديد الذي يُعدّ نفسه ويتحمل بنغبطة مسؤولية أكبر عن ذاته وعن قدره ومصيره . وبناء على هذا ظهرت محاولات الإصلاح التي اقترحتها الكنيسة . ولكن التعديلات تبدو أكثر صعوبة في تهذيبها وإحلالها موضع القبول الموس بقدر ما تكون الطائفة المعنية بالمشاركة شبيهة بوطن ، أو على الأصح ، بمنطقة إقامة أقلية . وهذه الـ « نحن » المستعملة اليوم تعني تجاوز الـ « أنا » : هذا تبريرها . كما أنها تفسر أيضاً مشاركة عتجزة في حدود ضيقة . وسيمون ويل أدركت خطر هذه الـ « نحن » المضيقة الحدود .

ولكن الحاجة الى الاصلاح لا تتناول أنظمة الأديار وحدها بل تمتد الى كل الأشكال البنيوية المنتسبة الى عهد كامل من التاريخ . فكل سلطة توضع موضع بحث في أمرها . وكذلك أيضاً تبدو فوضى المتعلمين ذات مغزى ، سواء أكان هؤلاء كهنة أم أساتذة . ولقد قال لان ، الذي لم يؤمن قط بفضيلة بعض فئات « معلمي الفكرة » ، « السلطة تستبدل أيديها » . والعلم اليوم ، وهو الذي لا يناقض الاستيحاء بأية صورة ، يفتح طريقاً لعلم مرثيات جديد . فالإنسان يكشف ذاته ويحمل مسؤوليتها في عالم متحرك ودائم المفاجأة بالمهيات الجديدة .

وعلى الرغم من الاحتياطات التي تفرض ذاتها ، فإن الأديار يجب أن تعتبر كأماكن انتخاب تستجيب لحاجة عدد قليل الى المطلق . وبما أن المناسك تترك حرية أوفر لرعاياها ، فانها تضع نفسها على صعيد مميز بشكل بارز . فهي لا ترتبط بمؤسستها في شكل معين ، ولا بعهد محدود ، ولكنها أكثر ارتباطاً بما وراء التاريخ منها بالتاريخ ، واستناداً الى هذا الواقع ، فانها لا تتحمل قطعاً التغيرات الزمنية .

أما في الغرب ، فان الأديان نفسها أتت ، بصورة غالبية ، ديناً نفسياً لا ديناً « هوائياً » . فقد غيرت أشكالها ، في مجرى التاريخ ، مهددة ذاتها للعالم ، وهي تتمنى لو في استطاعتها أن

تستخدمه لخيرها . من هنا جاء تعطشها الى القوة ، وتذوقها  
السلطة ، وجهلها . فلو انهارت اليوم ، ثم وُضع كل شيء  
موضع البحث ، فان وجودنا ، أمام أخلاط لا نظام في جمعها ،  
شاهد على أنها عاشت في ازدواجية .

وان ديناً قوامه الفكر يتيح للانسان أن يحرز ثقلاً نوعياً  
أوسع ؛ فيحسن علاقاته بالله ، وبنفسه ، وبالغير . ولكن ،  
هل يمكن أن يوجد دين فكري ، واذا وُجد فهل يحيا؟ المستقبل  
يحيب عن هذا السؤال . ولكن ، بين الحياة الشخصية تحت  
افتراض الفكر ، الذي لا يحتمل حواجز ، وبين الحياة المشتركة  
والكنيسة المؤسسة قام دائماً استدلال عقلي يؤدي الى نتيجتين :  
ولقد اصطدم الفكر النبوي بالحدود المؤسسة اصطداماً غير  
منقطع ، وفي كل مرة برزت استطاعة الأمل بانتصاره في الزمان  
المستقبل .

ولم تزل نتائج الحركة الانفصالية الدينية التي حدثت ، في  
الغرب ، سنة ١٠٥٤ ، مستمرة الثبوت في العلاقات غير  
المنظورة . فكان الانفصال بين رومة وبيزنطية جاء نهاية لاتساع  
شقّة خلاف طويل . كما أن هذه النتائج ازدادت حدة في مجرى  
القرن الثاني عشر ؛ أما في القرن الثالث عشر ، فقد استهلك  
الشقاق ، وكل انسان ، مسيحي أو غير مسيحي ، فإنه بمجرد

انتجته الى نوعية حضارية ، يحمل طابع هذا الانكسار في بنيته الخاصة ، وفي طريقة تفكيره ، واختياره ، وانتقائه . والفنون ، والعلوم ، والثقافة في مختلف أشكالها ، وليس اللاهوت والفلسفة وحدهما ، تتحمل ردة فعل هذا الشقاق . فالكنيسة المنشقة قسمت الانسان ؛ والمسيحيون ، دون أن يريدوا ، عانوا آلام هذا الانقسام ، ويمكن أن نقول الطلاق ، في أهمهم . واذا كانت الكنيسة اليوم ، لا تحظى إلا بمكان صغير في تفكير الناس ، فإن الحال لم تكن كذلك في القرون الوسطى ، حين ازدهر كثير من مدارس الأديار في فن تعليم معرفة الذات وفي الوقت نفسه شرائع معرفة الله . غير ان الكنيسة التي كانت ، في الغالب ، أما متجاوزة الشرائع ومتمادية في السلطة ، كانت تقدم الأمن والحماية لأبنائها . أما التمزق الذي حدث في القرن الحادي عشر ، فإنه لن يندمل ؛ وسيبقى نهائياً شغل الكنيستين الشاغل : اللاتينية والارثوذكسية ، وبواسطتها شغل كل رعاياها .

ان نتائج هذا الانفصال ، اذا ترجمت بصورة مختصرة ، تتمثل هكذا : من جهة ، الذهن - لا الفكر - وحب العمل ، مع الغرب ؛ ومن جهة أخرى ، القلب وأبعاده الداخلية مع الشرق . ففي سفر التكوين جاء الكلام على خلقين متتابعين ؛ خلق آدم ذي الجنسين ، ثم الرجل والمرأة . وهذا الخلق الثاني



يُدخل ازدواجية مثيرة تشبه ، بصورة ما ، الانقسام الذي  
ولَّده الانشقاق الديني . ولذا فإن ديناً للفكر يكون  
مصالحة بين الغرب والشرق ، بين الكتلركة والارثوذكسية .  
وهكذا يستعيد الانسان وحدته . والماورائيات الهندية لن  
تكون في هذه البنية الجديدة شيئاً مرفوضاً . فإنها تمكن  
الانسان من معرفة الانسان ، ومن وسائل تنمية كفاياته بواسطة  
تقنيات خاصة . وهناك أيضاً ، ليس كل شيء للحفاظ ، ولكن  
يجب أن نختار . واذا كان صهر تعاليم متعددة وجعلها تعليماً  
واحداً خطأ ، فإن الوحدة صواب ؛ ففي القمة الكل واحد .  
واستناداً الى هذه الوحدة يستطيع الانسان أن يجد ، في  
المدارس الروحية والأديان ، وسيلة تسهل له الدخول الى  
معرفة ذاته .

### الخواجز السابقة للدعوة

يُنظر الانسان الى نفسه ما بقي حياً ، فيميز في ذاته الحسن  
والسيء ، وعظمته وبؤسه ، وجماله وقبحه .  
هوذا فرنسوا مورياك يقول : « ان ما يميّز الأوقات القوية  
والأوقات الضعيفة في قدر الانسان هو الاختلاف أو الاتفاق في  
ما بينه وبين نفسه » .

إذا ، من غير الممكن أن يكون الانسان في وفاق مع نفسه  
وفي جهل من ذاته . وأكبر خدمة يستطيع الانسان أن يقدمها  
للغير ، ولنفسه أيضاً ، هي الاطمئنان الى ذاته الحقيقية . فمن  
الملائم لإنساني ، على كل حال ، أن يتجنب تحليلاً يتناول صفاته  
الحسنة أو السيئة ، ويتناول ما كان موضوع أسفه ، وسبب  
تقدمه أو تأخره ، لأن كل مرحلة من هذا التحليل تنتهي الى  
بلورة الفكر ؛ وهذه البلورة تعرضني ، أنا الانسان ، لخطر  
تركزها قويحة في ذاتي ، وتأثيرها على مواقفي ، وامتناصها  
نباهتي ، وبالتالي تحويل نظري عن الأساس . ولقد كان لإينياس  
دي لويثولا ، في إحدى تأملاته التي انطوى عليها كتابه المشهور  
«تارين» طلب «يود» فيه أن تصوب النباهة على الشر المرتكب ،  
على أن يجري هذا سنة فسنة . إذا ، فالأنا في صعوبة لا تمكنها  
إلا بعد جهد عظيم من الاطمئنان الى ذاتها ، ما دامت تحيا في  
تعدد وانقسام . ولقد تنبه لهذا الأمر موتين فقال : إن عملية  
محاسبة كهذه تقتضي وجود ذاكرة «حافظة» . فالاطمئنان  
الى الذات يتطلب سيراً الى الأمام موجهاً نحو هذا الاكتشاف :  
أي العثور على مفتاح الذات . وكما ان مفتاح السلم الموسيقية  
يؤمن قراءة النغم ، فإن التمكّن من قراءة الانسان ذاته يقتضي  
أن يأخذ بعين الاعتبار مفتاحه الخاص المسك بعنان قدره .

أما الوفاق أو الاختلاف ، اللذات يُلح إليها مورياك ، فيها  
شبهان بإيقاع أو نشاز مع الذات ، لأن التحقيق هو جواب  
يعطيه الانسان لنفسه . والانسان لا يحدد بالاستناد الى سلالته  
أو الى دينه ؛ لأنه يستطيع أن يتمثل عملياً من خلال سلالته أو  
دينه ، وعلى كرهه من مختلف شروط حياته ؛ إذ لا فرق في أن  
يكون رجل دولة ، أو أستاذاً أو إسكافياً . إنه ، على كل حال ،  
ذو لون ، ونوعية ، ومستوى خاص به . ومن واجبه أن  
يستجيب لهويته . فإن هو أهل ذاته ، عسي ناعساً ؛ وان هو  
قلد الغير ، يصير ببناء أو قرداً ، باعتبار ريشه ، أو لون  
جلده ، أو مبلغ فهمه ومهارته ؛ ولقد تكلّم مونتين في هذا  
الصدد ، فأسمى هذا التقليد : « شرطاً قردياً تقليدياً » .  
إذا ، من واجب الانسان المتطرق نحو المعرفة أن يأخذ  
هويته بعين الاعتبار ، وهذا لا يعني قطعاً أن ليس من واجبه أن  
يقاقل لتحسين ذاته . ففي استطاعتنا أن نحفر مجرى نهر أو أن  
نمرقل جريانه ، كما انه في امكاننا أن نحوله عن مجراه الطبيعي ،  
ولكن ليس في استطاعتنا تغيير منبعه ، ولا نوعية مياهه ، فهذه  
تتخذ صفاتها من مكان ولادتها ، ومن طبيعة الأراضي التي تعلوها  
والتي تغمرها في جريانها . وهكذا يتسع الانسان ويتحرر  
بنسبة ما يطمئن الى ما هو والى ما يستطيع أن يصير .

وقد يكون مثال الشجرة مستعرضاً ، لأن غوها لا يجري مصادفة . فالشجرة ، بفعل أمانتها لتوعها ، تحتفظ بنوعية ورقها وثمارها الخاصة بها ؛ فليس في وسعها أن تتنكر لذاتها . وخطأ الانسان في إنسانيته هو في قبوله مطاعيم كثيرة وفي تهديم ذاته بالتقليد . فليس من إنسان قادر على أن يتحمل مسؤولية نفسه غير الانسان الحر ؛ وفي هذا المعنى كتب بيرويل : « الله عهد إلينا بنفوسنا » ، لذلك نستطيع القول : « يجب على الانسان أن يتعهد نفسه بنفسه » .

كثيرة هي العوائق المختلفة التي تجعل معرفة الذات شيئاً مستحيلاً حقاً ، سواء أكانت صادرة عن جهل ، أم عن سهو ، أم عن هو ، فإن هذه العوامل الثلاثة لا تتمثل كأصعدة متتالية يستحسن تجاوزها ؛ ولكن الانسان الباحث عن ذاته لا ينفك عن مجابتهها ، تحت مختلف الأشكال التي تترتين بها ، والتي يتناولها في مجرى طريقه مما يضريه أو يحمله على التماسك .

وأكثر الناس لا يعرفون أن في استطاعتهم أن يصيروا ناساً آخرين ؛ وانطلاقاً من هذا الواقع ، فإنهم يكونون غير مهتمين لجهلهم ، يعني جاهلين بجهلهم ، فلا يحاولون اجتياز حدودهم . والانسان الذي يستجيب لشرطه كإنسان ، يجب أن يفهم أولاً ان في امكانه أن يتخذ طريقاً تؤدي الى هذا الشرط . وعندما

ينفتح الانسان على هذه الحقيقة ، فإنه لا يكتفي بأن يعرف كيف يستطيع ، مثلاً ، أن يمتلك هذه النظرية أو تلك ، بل يجب أن يعاني عنف رغبة لا تضبط ، وشبهة لا تمسك ، فيصير كعاشق أضناه الحنين الى ذكريات موحدة يجهل حقيقتها ولكنه يشعر بها . إذن ، الانسان الساهي - كأنه بين الصحو والإغفاء - لا يعاني أي عطش لا ينتهي ، لأنه مستغلق في العالم الفاني ، أو على حدّ قول كيا كيرغارد ، انه محروم من الحياة كلياً . وبصفته مأخوذاً بالنوم ، فإنه لا يهتم لما في داخله ، وهو يستطيع أن يجيئه ليصبح حياً . كما يستطيع ألا يتحمل مشقة هذا الإحياء وأن ينام عن تحقيقه ؛ ومع ذلك ، فمن النادر أن يتطرق ، في فترات غير نظامية ، الى صعيد آخر كان معرضاً لنسيانه ، لأن بصيرته لم تتعود بعد الرؤية المتحررة النيرة . واللهو يستأثر به ويوزع انتباهه ، مانعاً إياه من أن يستمر في وسطه الخاص ، فيمدّده خارجياً . ولقد أصبحت صورة أفلوطين معروفة عن طريق أفراد الجوقة التي تُولف حلقة حول رئيسها ؛ فهم يغنّون ويرقصون ، فإذا أداروا وجوههم نحو المشاهدين توقّف لمبهم فوراً ، وإذا تحلّقوا حول معلّم الجوقة القائم في وسط الحلقة ، فإن إيقاعهم يُسمع مؤتلف العناصر . وهكذا فإن اللهو يحلم بأشكال مختلفة تستطيع أن تؤمّن الاطمئنان ، كأن

يكون الانسان أباً صالحاً أو زوجاً وانياً ، وأن يكون مدفوعاً  
بالاهتمام بتأمين الشهرة أو مقيداً بها ، أو أن تكون قد امتصته  
الحوادث الملحوظة في التاريخ العالمي<sup>١</sup> . إذن ، لا يجوز الاعتقاد  
بأن المذات ، والألعاب ، والمحادثات العالمية وحدها تؤلف  
الفخاخ الأكثر خطراً . فالأمر الجدي والبحث الفكري كلاهما  
يستطيع أن يصبح شرّاً أشدّ خطراً . فلنتسلّ عن كل منا  
يبعثنا عن الأساسي ، ويطرحنا في داخل الحلقة ، يعني ما يبعثنا  
عن الوسط المركزي . والآلهة أنفسهم يمكن أن يصبحوا ملهات  
للفكر ، والبحث عن الحقيقة ، وهناك أيضاً ملهات مرنة من  
الصعب أن نقبض عليها ، وهذا الواقع أكثر ضرراً من ملهات لا  
ينقطع دور عملها . والانسان ، الذي لا يعرف ذاته ، هو بحكم  
هذا الجهل وثني . لأنه لا يستطيع أن يجد غير امتداد ذاته ،  
ولا يسمع غير صدى ذاته . من أجل هذا يعبد « حقيقته »  
و « إلهه » ؛ فتكثر المواقف المرغمة التي تحرك النباهة وتؤخر  
الانقطاع عن العمل الأساسي . وتقتضي معرفة الذات انقطاعاً  
مؤقتاً عن العمل للتمكن من الانصراف الى البحث الحقيقي .

---

(١) يقول كيركغارد ان تجارة شديدة العلاقة بالتاريخ العالمي هي  
عجارة خلود .

ذلك ، لأنها لا تبدو كعمل فضولي ، أو نوع من المشاغل الثانوية  
يسلّي عن العمل اليومي ، وإنما هي شغلٌ جدّي يحنّد له  
الإنسان الفاعل وقته ، وقواه ، وطاقته ، وهكذا تتيح له أن  
ينفتح على بُعد آخر كان ما يزال غريباً عنه ، إذ تبرز فجأة فيه  
نافذة ، هي نوع من الشبابيك يطل على عالم جديد . بل هي أكثر  
من شبّاك ، لأن هذه الثغرة الصغيرة تضعها موضع حوار ، فتضيق  
إلى « شيءٍ دخيل في اللحم » .

والإنسان الذي أصيب بهذه الهفوة الصغيرة ، سيمضي ، وهو  
مطمئن إلى استطاعته تجاوز حدوده بفضل إرادة لا تضبط ، في  
هذه النزعة السامة ، في تفهم وضعه تفهماً مفاجئاً ، أو على الأصح ،  
سيمضي في تفهم هذه المخالفة للرأي العام ، التي وجد نفسه فجأة  
ملقى في قلبها . وهوذا هو جاثق إلى النفوذ إلى قلب بُعدٍ جديد ،  
فهو ينادي ويصرخ ، ولكن ما يعمل للحصول عليه ليس عينه  
ولا أذنيه . فالنظام انقلب ، وسينفهم فجأة أن صراخه الخاص  
ليس غير صدى لما يتفجّر في قلب عمقه الذاتي ، وهو في ما يعمل  
لا يتجاوز الاستجابة لنداء كان في ما مضى غير قادر على أن  
يكون مسموعاً .

نداءٌ كهذا يتناول كل الناس ، ولكن من يسمونه قلّة  
صغيرة . وفي « الأمثال » ، كرّرت الحكمة نداءاتها في الشوارع ،

وفي الساحات العسامة ، وفي ملتقيات الطرق ، وفي مداخل  
الأبواب ، قائلة :

أنا أنادي وأنتم تعرضون عن نداءاتي ، أنا أمدُّ يدي ولا  
أحد يأخذ بها !

ويقول كير كغارد في كتابه « الشوكة في اللحم » :

كل الناس مدعوون ، في عالم الفكر ، والذي يخرج نفسه  
من هذه الدعوة ، وحده معزولٌ منها .

والنداء ضروري ، لأن الحقيقة النهائية ليست ثابتة من  
الخارج . ومع ذلك ، ليس من معرفة حقيقية ، دون نداء  
حماسي ، ودون معرفة ليس من تحرّر ، ودون نباهة يقظة ما  
من نداء مسموع . وهذا النداء شبيه بإغراء أختاذ : فالروح  
تقبل العطية الإلهية فجأة ؛ وهي ، منذ الآن ، قد تغير فيها  
شيء ما . والحالة التي كانت سابقاً حالتها الخاصة ، لن تستعيد لها  
أبداً . وسيميله التي اغتصبها زوس بقيت تتمنى أن ترى ابنها  
ديونيسوس . واستجابة لأشواق تمنيتها ظهر لها زوس في طبيعته  
الحقيقية : فاحترقت سيميله . فاضطر ديونيسوس للنزول إلى  
العالم الداخلي في جوف الأرض ، لكي يفتش عن أمه ويحملها إلى  
الأولمب . والتأسُّ بالله يحدث دائماً حريقاً : « لا يستطيع الانسان  
أن يرى الله دون أن يموت » ( سفر الخروج ٣٣ ، ٢٠ ) . وجاء



في التوراة ان الله كان يضطر أن يحيط نفسه بظل ، بسحابة ، لكي يحمي الانسان من خطر الحريق . والنداء ، وأشواق التمني تعني تجربة تترك في الانسان آثاراً لا تمحي : فأشواق التمني شعاع روحي .

ومن جهة ثانية ، لا يعرف هذا النداء كيف يكون مجدياً اذا لم يعل الى أن يصبح حالة تتوطد في ما وراء التأرجح القائم . والانسان غير المحقق ذاته فريسة ، بوضعه المتأرجح ، لتغيرات تأتي عن فقدان الاستقرار . ولكنه ، على كل حال ، يمكن أن يعتمد عنها مؤقتاً ، في حال ان بحثه أصبح وسطه ، ليعود الى عنصريته بفعل جاذبيته الخاصة . ويضل طريقه ، ويطيش صوابه ، ويبدد طاقته ، ويسوء استعمال وقته ، ولكنه لا ينكر أبداً ، ولا يقول «لا» قطعاً . وهكذا يتضح ان بناء الانسان نفسه يستمر مدة وجوده كلها ، دون أن يحتمل لحظة توقف ؛ إذ ان كل توقف يعتبر تراجعاً يصعب التعويض عنه ، فهو يقتضي إذن ، من المثابرة بقدر ما يتطلب من الصبر المتنبه .

### الحالة الداخلية والحالة الخارجية

عندما يُسمع النداء يبتدىء الانسان بالنفوذ في معرفة ذاته ؛ فيطوق حركات روحه التي شبهها أفلاطون بالإيقاع الموسيقي .

هذه الحركات ، يعمد الى تطويقها بصورة مضادة فلسفياً : أي بدخوله الى ذاته ، هذا الدخول الذي يمكن اعتباره كرجوع ، أو كخروج من الذات . ولقد ألحَّ جان فال على طريقة هيجل ، الذي تجلَّت له رؤية الأنا كوحدة بين لحظتين : هما معارضة الأنا في شيء ما ، والدخول الى الأنا ( الوجود البشري وما هو خارج متناوله ، ص ٣١ ) .

على كل حال ، إن الاطمئنان الى هذا المدخل والى هذا المخرج هو في غاية الاختصار .

إننا فريسة تخيلاتنا وأحلامنا وقليل ما يوجد فرق بين يقظتنا وإغفاءتنا ، وهكذا نعيش مختارين على هامش الحقيقة مشتغلين في البحث عن عمرنا الذهبي . وكثيرون من الناس يشيخون ، وهم يحملونه في حدائثهم ، ناسين أنهم عندما كانوا في طور الحدائة كانوا يحملون به للمستقبل . والحنين الى ذلك الفردوس المفقود أو المبحوث عنه يسكن قلب كل إنسان . وما يختلف ، في ما يتعلق بمحتوى هذا الفردوس ، يتناول فقط الملائكة أو الشياطين الذين يسكنونه . وبعض الناس لا يشعرون انهم على قيد الحياة إلا إذا كان حضور الغير يُذكي حيويتهم ؛ وآخرون ليسوا هم أنفسهم إلا اذا وجدوا أنفسهم منعزلين . وعندما يخلو الانسان بنفسه فان خلوته لا تتجاوز بعض أجزاء

الثانية ، فلا ينفذ ، مثل هذه اللحظة ، الى إقليم منعزل يصبح فيه فريسة لوحده فيجد ، في قلب وُدّه الحميم مع نفسه ، حضوره الذاتي : يعني حضور حقيقته المطلقة . وليست الوحدة خيفة إلا لأولئك الذين لا يعطشون الى وُدّهم الحميم مع نفوسهم ، وبالتالي فهم يجهلون ؛ بينما ان هذا الودّ الحميم يبني السعادة العليا للذين تذوقوا طعمه . ومحادثة الغير يهددها دائماً خطر الامتداد سطحياً ، حتى ولو كانت تثير وتجرح ؛ إذ انها تكتفي ان تنفذ لحظات الى العمق فتصبح حواراً . ولكن الحوار الأسى يتبدى في الانسان عندما يقتنع بأن يسائل نفسه في وحدته ، مطمئناً هكذا الى استكشاف فضائه الداخلي : ففي هذه الآونة تقابل المظاهر أمام السر الكوني . لأن الانسان يستطيع ان يعطي نفسه ، مع الغير ، ظاهراً لوجوده ؛ وفي الوحدة يفقد هذا الظاهر ؛ أمام الغير ، يستطيع أن يلبس قناعاً ، ولكنه ، في وحدته ، مقتلع من خارجيته ، يمكن أن يستكشف ذاته . فهل يكتشف في ذاته أراضي عذراء ؟ هوذا كريستوف كولبوس جديد ، أصبح فاتحاً . وهذه الأراضي العذراء تبدو شبيهة بجزء من كل يحاول ان يقرأ كل رمز فيه . وعلى الرغم من الانبهار الذي يشعر به ، فان القراءة تبدو على جانب من التردد .

في نظر هيدجر ، الانسان بطبيعته خارج ذاته . لأن يجعل موضعه الى جانب الأشياء ، ويقوم مع الناس . والوجود ، كما يلاحظه جان فال ، هو الانخراط من العالم الخارجي ، في معنى كلمة انخراط أصلاً ، ؛ من هنا ان « فلسفة الوجود هي فلسفة تتناول ما هو خارج الانسان » ( الوجود الانساني وما هو خارجه ، ص ٢٩ ) . وفي استطاعة الانسان ان يطمئن الى وجوده في معاناته شعوراً بالكآبة ، وفي قلقه العميق ، كما يرى كياركيغارد ، أو في اشتمزازه ، كما يقول سارتر . وهكذا يطمئن الى المنطق داخلياً وخارجياً .

أما الذي تفوق في الكلام على هذا الموضوع فهو غاستون باشلار . ففي رأيه ان كلمتي « داخلي » و « خارجي » تطرحان مسائل على الانثروبولوجيا الميتافيزيقية ، وهي مسائل لا يمكن ان تكون هندسية على الاطلاق . فالصفات تتمثل في حدود اتصالنا بالأشياء . فيستطيع الانسان ان يعين وضعه بصورة أفضل في الداخل ، أو على العكس ، أن يعينه في الخارج .

ليس الانسان واقعاً من انه أقرب من ذاته بمجرد «الدخول» الى ذاته ، ولكنه باتجاهه نحو وسط سلسلة الخطوط المتعرجة ، يكون ، في الغالب ، في قلب إنسانه ، الانسان الدائم التيه ( شعرية الفضاء ، ص ١٩٤ ) .

وإذا كان التسيه في الداخل ، فذلك نتيجة الجهول الذي يبرزه ؛ فالتحرك في هذا التسيه الداخلي ليس أمراً سهلاً . وعند الهجيء من الخارج ، يتطلب المناخ الداخلي قدرة على التأقلم . ولكي يتوصل الانسان الى معرفة هذا الداخل ، يجب ان يعلم أولاً أنه موجود ، ويتخذ بحرية الطريق التي توصل اليه . إنها طريق صعبة ، ومن جهة أخرى ، مليئة بالفخاخ وأوهام الحواس . وقد تكلم نيتشه على « الألم الكبير » الذي تفرط الحقيقة في استخدامه عندما تريد اخضاع الانسان لسلطانها ؛ فالحقيقة تخترق اللحم كما تخترقه السكين الحادة . وفي الكلام على كيار كيغارد أعاد شيستوف الصورة التي أحدثها نيتشه . الشمس الحقيقية موجودة في داخل الانسان ، ولكنها تولد ظلالاً ذات أشباح . فيم الداخل في خطر وجوده فارغاً ، كما يترامى الخارج وكأنه سجن ؛ وكلا الداخل والخارج يمكن أن يعودا الى طرحها مسألة . ولكن ، لسوء الحظ ، في بحث مسألة الداخل يفتش الانسان عن ملجأ في الخارج ؛ وعندما يطرد من الخارج يحاول أن يجد له ملجأ في الداخل . والضمير التاعس ، الذي لا يكون أصيلاً البتة ، يلقى به في ألم دائم من الزواج والهجيء سعياً وراء استقرار زائل . ومن خلال تمنيه إقامة حوارات مع الحضرات التي تسكنه ، لا يسمع صوتاً ولا يقبض

إلا على غياب . وإذا ما سيطر مرض الأعصاب ، فإن أنين اليأس ينبعث من الداخل ومن الخارج ، فيجد الانسان ، أسير هذا المرض ، نفسه محروماً ، لا من عش يأوي اليه فحسب ، بل يجد نفسه محروماً من أقل راحة . فلم يبق له من سبت للراحة : فوجوده قد أصبح حلاً مزعجاً أو فكرة معيبة . وعندئذ يصبح الاتزان في خلق اتفاق ، ومبادلة ، ومعادلة بين الداخل والخارج . وعندما ينتفي كل عدا ، تتولد صداقة ، فلا تبقى جهنم قائمة لا في الداخل ولا في الخارج . ومن وحدة الداخل والخارج ينتج السلام .

مع كيار كيغارد لا نجد هذه الدعوة الداخلية موصوفة فحسب ، بل في موضع تجرية ، وهي دعوة لم يستطع الحياة معها غير عدد قليل جداً من الناس القادرين على معايشة نوعية راجحة كهذه . وفي نظر كيار كيغارد ، كل شيء في الانسان يوضع على صعيد الداخلية الذي يتمثل وكأنه سر عميق لا تمكن مداناته إلا منعزلاً في شبه « معتكف دينسي » . وفي رأي كيار كيغارد ، ان « الفكر هو الداخلية ، والداخلية هي الذاتية ، والذاتية هي أساساً ، هوى » . والملاحظة الأخيرة تختصر وحدها كل الطريقة التي اعتمدها الانسان الفاعل نحو

داخليته . ومنطق العمل الداخلي يمتد الى إثارة اللانهاية شيئاً فشيئاً ؛ وكلما لاحت الأعماق الفكرية ، وقع الانسان في مزيد من الإثارة . وترك الانسان الوجدان العام يعني تركه حالة الأمن التي كان ينعم بها سابقاً ، ليصبح فريسة لأنين وثيق الصلة بكل شرط يتجاوز درجة توحد الانسان . فعزلته الخلقية مزدوجة : فمن جهة ، لا يتوصل الى الاحاطة بداخليته لكي ينفذ اليها كأصيل ؛ ومن جهة ثانية ، تعدل علاقاته بالعالم ؛ وهنا أيضاً يصبح غريباً . وهوذا هو دون وطن ، ليس محروماً من سقف فقط ، ولكنه مشوّه بهذه الركاكة التي تسمح بالمبادلات والثروة . عن هذا كانت تنتج حركة مزدوجة تصل الى حد التفتيح ، فيرى الانسان نفسه محروماً من الأرض والزرع ، فيعاني ذاته كأنها فراغ ، وعدم ، وأرض بور .

وفي رأي كيار كيغارد ، أيضاً ، ان فارس الداخلية يظهر للناس ، حياً في توحد الانسان ، ك مخلوق لا ينفع ، لا بل يضر . وهو يعرف كم هو نحيف ان يكون الانسان قد وُلد مستوحداً ، خارج العام ، يمشي دون ان يلاقي رفيقاً واحداً لطريقه ( خوف وزلزلة ، ص ١٢٢ ) .

والذين لا يقاسمونه داخليته يعتبرونه كجنون أو كمرء ، وهذا الاعتبار يزداد بمقدار ما يكون متقدماً في عمر الداخلية .

والتجربة وليدة العلاقة بالداخل لا تعرف كيف تتعمق  
معرفة بعد جهلها ، فتبقى سرية في عمقها ؛ ومن جهة ثانية ،  
كيف نستطيع نقلها للغير ممتدين على تحركها :  
« كل حياتي علامة تعجب ودهشة ، لا شيء فيها مستمر  
لإقامة ... كل شيء يمر عليّ : فكرة المرور ، وآلام عابرة » .  
وكثيراً ما قلتش كيار كيغارد في الخارج ، في الممرات  
الخارجية ، عن فتحه أناه ، التي كانت تفلت منه ، ولكنه كان  
يعرف انه يخدع نفسه ، ويضلها ، ويهدر طاقته . غير ان غرابة  
شخصيته تزداد لإنفصاله عن نفسه باستقالة أناه ، فيسجل تقليده  
الغير بانعدام كينونته ، وبفقدان أنا مركزية تثبت حقيقة  
شخصه قانونياً . ولكن عدد الناس ، الذين يظهرون قادرين على  
امتلاك مثل هذه الصفة من التفكير ، قليل جداً ، وفي غياب  
هذه الداخلية الموجهة جداً ، قد ينتهي الانسان الى تجربة  
الانتحار . والقناع يعطي وهم حضور ، فتبدو مهمته غالباً  
موجهة لإخفاء الفراغ ، كغطاء موضوع على إناء لا محتوي فيه .  
وقد عني كيار كيغارد كثيراً بوصف هذا التماس مع الداخل أو  
مع الفراغ مع كل ما يحتمله هذا الوصف من الحشونة ، والملل ،  
والكآبة ؛ فقاد قتالاً ، لا بل معركة لا هوادة فيها .  
ولكي يطمئن الانسان الى ذاته ، ينظر الى الغير مختاراً



ويقارن نفسه به . غير ان موتين أشار الى هذه الطريقة  
الخاطئة ودلل بأفضلية الرجوع الى الذات ، إذ قال :  
العالم ينظرون دائماً الى ما حولهم ، أما أنا فأردّ نظري الى  
داخلي ، وأغرسه هناك ، وأحكيّ السدّ عليه . كل انسان  
ينظر الى قدامه ، أما أنا فانظر في داخلي ، وليس لي من شغل  
غير هذه الأنا ، فأروز نفسي دون انقطاع ، وأراقبها ،  
وأندوقها ... فأنا أتقلب على ذاتي ( التجارب ، ٢ ، ١٧ ) .  
عندما يبتدىء الانسان بالتأمّن مع داخله ، يحاول ان يتفد  
الى عمق الغير ، ويسأله . ويتمنى أن يقارن بين الأساليب ،  
ولكن ما من سفر مماثل ما دام متمسكاً في تمرينه ، والوحدة  
التي يحرزها هي ، وحدها ، تمثل مرأى تصح المشابهة فيه .  
وإذا كان الأليثيون قد حاولوا ، أولاً ، بلوغ القمة بطرق  
مختلفة ، فانهم لم يصادفوا الصعوبات نفسها ، لأنها ، على الأقل ،  
كانت تتجدد في صور مختلفة . يضاف الى هذا ان لكل  
مكتشف مزاجه الخاص ، ومخاوفه ، وإقدامه الجريء ،  
وإمكاناته ، أو لا فله دؤاره ، وسيره البطيء أو السريع ،  
وإيقاعه في نبض قلبه أو في حركة تنفّسه . وهكذا لا تصح  
أية مقارنة أو هي لا تستطاع ، فليس من نقطة مستقرة تبدو  
لناظر ، لأن الغير مثل الأنا ، صيرورة منتظرة . وإذا تحكمت

في الغير ، فسأمرع الى ضبطه ، والى فرووزته « بروزته » كما  
 تفروز الصورة ؛ بئد أن الغير حي\* ، فهو يتحرك .  
 والانسان ، بصفته ذا ملاحظة ، يكتشف أبعاده غير  
 المحدودة . وهذه الأبعاد دينامية . ولقد جاء في « شعرية  
 الفضاء » لباشلار ، ص ١٦٩ ما يلي : أبعاد الانسان غير المحدودة  
 ذات نوع من الانفساح الكينوني الذي تضبطه الحياة ، وتوقفه  
 الرصانة ، ولكنه يعود الى انفساحه في العزلة .  
 هذه الرحابة الداخلية غير المحدودة التي يمسك بها الانسان ،  
 يمكن أن تسبب الدوار بفعل ثقلها النوعي . ولهذا لا يمكن  
 الاطمئنان اليها إلا في السكون والعزلة . فارتقاء الجبل ،  
 والتأمن مع موضع عال يلقيان بالمكتشف في إقليم من الرعب ،  
 والخوف ، بمعنى ان أوتو تكلم على الاكتشاف الداخلي في صدد  
 الكلام على المقدس . فهذا الاكتشاف الداخلي يقتضي عبوراً الى  
 ما وراء كل فرترة ، فهو تجاوز عالم الحوادث . والتأمن مع  
 الأرض المجهولة يثير في من يقوم باختبارها ، تفرُّداً حاسماً .  
 فالرجوع الى الوراأ أصبح ، بالنسبة اليه ، أمراً غير ذي  
 موضوع ؛ فقد أبحر ، والمزاسي تقطعت ، والسفينة تتقدم في  
 عرض البحر . من الآن فصاعداً ، لم يبق من مرقاً فاتر لا يصل  
 اليه المد والجزر ؛ وهي ذي السفينة معرضة للعواصف ، أو

لرحابة بحر هادىء يمضي النظر عليه الى متاهات مجهولة لا حدود لها .

والبحث عن الذات ، نظراً الى تعقده ، يبدو في تلّس دائم . ولكنه ، في الحقيقة ، يحتمل ظهور التماعات مضيئة ، ولكن المسافة بين هذه الالتماعات تبدو مظلمة . ومن ينطلق الى البحث عن ذاته يكن شبيهاً ، كما سبق فرأينا ، بحسّاجٍ يكرّس نفسه لمسيرة لا تتوقف فيفاجئه الموت وهو في حركة بحثه . وعندما تقع المفاجأة القاتلة ، لا يجد الموت ان من أوقف خطاه عن مسيرة الحياة لم يكن في وضع مريح . فالإنسان الباحث عن نفسه يجهل الراحة ، إذ يفرض عليه الواجب ، بصورة دائمة ، ان يؤالف ما بين نظره وتطلّعه . وقد تأتي لحظة تختلط عليه فيها الأشياء والمرئيات الذهنية . وكلما تقدم الانسان ، وجد النظام الذي كان ، في ما سبق ، يعطيه موافقته قد انقلب فجأة . وعندما تعاوده اطمئناتته الى النظام ، فانه يخاطر أن يعرج ، مثل يعقوب خارجاً من قتاله مع الملاك . ولكنه ، وقد أصبح غير ما كان ، مضطر الى قبول ظرفه الجديد ، حتى لو كان موجعاً بالنسبة اليه . وهوذا هو في القفر مع كل ما يحتمله رمز كهذا : الجفاف والشمس في امتلاء حرارتها ظهراً . وكأسير لاكتشافه المتقطع العطاء ، وكمعجب به ، تأخذ

ذاكرته في التحرر من كل ما لا يصدر متأثراً بتجربته ؛  
إنه ينسى كل ما ليس أساسياً . وانه يُضيق ذكرى  
أخطائه والبلبلة التي مرّ فيها ؛ وينسى التغيّرات المتتابعة  
المتولدة من علاقاته مع الغير . وقد تكلم أفلاطونين في  
« الإيناياد » ، ٤ ، ٣ - ٤ ، على الذكريات التي تتغير في الخلاصات  
المحسومة التي تميّن الحقيقة . فالذاكرة النقية تتجاوز الحوادث  
الموضوعة في المدة من الزمن ؛ مربوطة بالوقت ، لأن الانسان  
الموضوع كانت يرتبط بها ، فهي تبتعد عنه عندما يكون قد  
استعلى عليها . يحصل المحسوس في الوقت ، وعالم الانسان  
الموضوع العسارف هو مكاني زمني . وعندما ينقطع الانسان  
عن العودة اليه ، ينحل من قيوده بالتاريخ ومن تاريخه ؛  
وهكذا ينفذ الى بُعدٍ جديد . وعندما يصبح كائناً جديداً ،  
مستمراً في امكانية التقدم ، يساهم في فتوة داخلية لا تخرقها  
الظلمة ولا يناها الاضططاط . فتغدو تجربته الفكرية أرجح ،  
في الثقل النوعي ، من تجربته المادية . ويبدو غير المنظور ،  
لبصيرته ، أكثر حقيقة من المنظور ، والوقت أقل قابلية  
للإلتقاط من الأبد .

### البُعدُ الجديدُ

لقد كتب برونشفيك في مؤلفه « في صواب التحوّل

وخطباه ، ص ١٦٩ « ما نصه : « الحياة المحض بيولوجية والحياة الفكرية متخالفتا الاتجاه . فاذا كان الانسان البيولوجي مرتبطاً بالزمن ، فالانسان الداخلي ملك الأبد . والأبد لا يتمثل ككفي للزمن ، فالزمن فيه قبل أو بعد . ومن خلال المنظور أتوصل الى غير المنظور ، ومن خلال ما ينتهي انفتح على ما لا ينتهي . ومع ان الأبد موضوع خارجه الزمن فإنه لا يُقبَض عليه إلا في الزمن » . أما بالنسبة الى بيردييف ، فان متعارض الزمن والأبد يتناول ، في الوقت نفسه ، مصير العالم ومصير الشخص . والحياة الأبدية لا تعني المستقبل ، ما وراء الموت ، ولكنها تعني « حياة الحاضر ، والحياة في عمق اللحظة » ، حيث يتم انفصال الوقت بدقة . وإظهار الأبدى ، هو إدخال الفكر في الوقت ، وبالتالي إعطاء الوقت شكلاً ليس له .

ولكي نمسك ببداية الوقت المتشكل ، الذي يتناول معرفة الذات في خاصته ، يهمننا أن نعود الى فكرة كل من برغسون ، وهيدغر ، وبيردييف . إن وقت معرفة الذات بوصفه وقتاً وجودياً يلغي كل خصومة بين الماضي ، والحاضر ، والمستقبل . والوقت الممزق هو وقت وهمي . والزمن التاريخي الذي تتعلق به أكثرية الناس يبدو حصيلة الموضوعية ؛ اذن ، الوقت الذي تعتمد عليه الداخلية يتجاوز التاريخ ، ليحقق ذاته في الأبد ، فهو

وقت حيّ ، ووقت غنتاه في قصائد لا تنسى كل من ابراهام  
فون فرانكنبير ، واضع سيرة «البوهيميا» ، والنجيلوس سيليزيوس .  
يردّ الانسان الحديث الاعتراف بالأبد مختاراً ، ويميل الى  
خلط غير الحقيقي بالأبد . ولكن أفلوطين طرح القضية ؛  
فيكفي ان نعود الى حوار أفلاطون لكي لا نرتكب خطأ  
كهذا : فإلهام «يشأ» ان يخلق عالماً أبدياً ، فألحق به الزمن  
صورة متحركة عن الأبد . وهكذا أصبحت اللحظات  
العناصر التي منها يتألف الأبد . فالأبد لا يفاجم ، لأنه مستمر  
الحضور . ولتعد الى هذا الموضوع ، مع برغسون ، القائل في  
« التطوّر الخلاق » ما نصه :

إن المكان والزمان لا يمكن ان يكونا غير الحقل الذي  
تتخذها لذاتها حقيقة غير كاملة ، أو على الأصح ، نائمة خارج  
ذاتها ، لتلجأ اليه عند البحث عن ذاتها . ولكن ما يجب اعتياده ،  
هنا ، ان هذا الحقل يخلق نفسه تبعاً للسباق ، وان السباق  
يضعه ، في شكل ما ، فوق ذاته .

وعندما يترك الانسان الزمن ، أو على الأصح ، عندما الزمن  
يتركه ، يجب ان يعاني إحساساً صعب التعرّثل : هو الإحساس  
بوحده . فالليل نحو معرفة الذات هو انفصال عن القطيع .  
والانسان الذي شرع في مثل هذا البحث لا يريد أن يتوحد ،

ولا يتمنى الوحدة قطعاً ، فلا يختار سبيلاً منعزلاً ، حتى أنه يرفض كل شارة خارجية تشير إلى تفرده . ووضع هذا يرسم له قدراً خاصاً ، لأن مصالح الناس ، وأطباعهم ، ورغبتهم في أن يكونوا أقوياء لا تقودهم إلى حضيلة مجردة من كل ملطمة في النظام الزمني . وفي نظر كيار كينغارد ان ابراهيم ، الذي تُنفي من العام ، وبالتالي أصبح محروماً من كل حماية ، ومتروكاً لذاته ، قد استحق ، بشرف هذا الوضع ، لقب « فارس الإيمان » . ولكن ، لا يقوى كل انسان على اجتياز مثل هذا المر الموحش المقفر ، فكيف ننسى رعب نيتشه وآلام كيار كينغارد ! ولنسمع شيستوف يقول :

« إن الأقدمين كانوا يميزون بين الآلهة بهذا الفارق : أي انهم لا يَمَسُّون الأرض عندما يمشون ؛ فكانوا يميزون الحقيقة بهذه العلامة ، وهي ان معرفتها لا تعمم ( أثينا وأورشليم ، ص ٤٣٢ ) .

أما كيار كينغارد فيقول : « ان العالم كان يعوزه ، بصورة دائمة تقريباً ، ما يمكن ان نسميه ، في صحيح التسمية ، فرديات ، وذاتيات مصممة ، تنعكس الى عمق في الفن ، وتفكر تفكيراً ذاتياً ، خلافاً لناس يصرخون ولاخريين يعلّمون » .

## اكتشاف ينبوع الحياة

٢

سواء أكان الوجود يشبه لعبة أو لعبة ، فمن الواجب دائماً أن يتعلم الإنسان قواعد اللعبة أو أصول النجم . وبما ان معرفة الذات تعتبر فن حياة ، فإنها تقتضي إعداداً عادلاً منطلقاً من لغة عادلة .

لقد رأينا ان الانسان ، القائم بسلوك طريق تؤدي الى معرفة ذاته ، يشبه حاجباً يسعى للوصول الى أرض موعود بها ، يعني انه حين الاستمرار ، وحين الى نظام ضياع . انه في الطريق ، بعد أن سمع النداء .

ويستطيع الانسان أن يسأل نفسه : ما عساني أكتشف ؟ فأنا أستطيع أن آتي هذا البلد أو ذلك بغية أن أزور فيه متحفاً ، أو أشهد شلال نهر ، أو أتسلق جبلاً . وأنا أستطيع أن أنصرف الى دراسة الفيزياء ، أو الأدب ، أو الفلسفة ، وبالتالي أملك



علماً . فما هي ، إذن ، هذه الذات التي يحاول الانسان غزوها  
وما هو معناها ؟

وفي سبيل الإجابة ، يجب أن نعرف ان كل اعتبار ينطلق  
من هذا الواقع ، وهو ان الازدواجية غير موجودة . واذا كنت  
أتكلم بتعابير تحمل تضاداً ، فذلك لكي أحدد مسافة . وفي  
حالة قبولي مبدأ الازدواجية ، فذلك ، فقط ، لأنني لم أتوصل  
قط الى معرفة نفسي . هنا ، التيه هو الازدواجية ؛ وسأبقى  
أفكر وأعمل بتعابير ازدواجية ما دمت غير عارف نفسي ؛  
فإذا عرفت نفسي ، فأنا واحد ، واذا جهلتها ، غرقت في  
الازدواجية ، فلا أستطيع أن أعتبر عن ذاتي إلا بتعابير  
متناقضة . ومعرفة النفس ، إذن ، هي اكتشاف وحدانيتي ،  
ومباشرة تماسها مع مصدرها ، مصدر حي لأنه مصدر الحياة .  
وعندما يتفجر هذا ينبوع الى آلاف من النقاط ، يجب ألا  
ننسى أنه كان في أصل انفجارية واحدة . إذن ، ليس من  
ازدواجية على هذه الأصعدة : روح - جسد ، وفكر - مادة ،  
وخير - شر ، وذات - موضوع . وبين هذه الأزواج المختلفة ،  
تترامى مستويات في شكل عوارض سلم ؛ ولكنها على عكس  
عوارض السلم ، إذ تتواصل في ما بينها كما لو كانت موضوعة  
في تقال على سطح دائري . فستوى الجسد غير مستوى الروح ،

ومستوى الروح مختلف عن مستوى الفكر . وعندما أطمئن  
الى جسدي ، فليس عندي ما يدعو الى نكران روحي ؛ واذا  
اطمأنتت الى وجه فكري الذي لا يُحدّ ، فلا أجدني في حاجة  
الى نكران جسدي ، بل على العكس ، يجب ألا أُضَيِّع  
نظرتي إليه .

والازدواجية لا توضع ، إذن ، على صعيد طبيعة الروح أو  
الجسد ، فهي مستطبعة ، عند الحاجة ، أن تضع نفسها ، في  
صدد الاتجاهات الضميرية ، موضع استهداف بنيتين عالميتين  
مختلفتين : والمقصود ، هنا ، ازدواجية الحرية والضرورة ،  
والوحدة الداخلية وانفصال المعنى واللامعنى وعداوتها .  
والضمير المتفكير وحده قادر على أن يقبض على هاتين الحالتين  
العالميتين وأن يتغلب عليهما .

وجدير بنا ، في هذا الصدد ، أن نأخذ باعتبار فئتين من  
الناس : الناس الناقمين والناس المتيقظين . فالنموذج الأول يعيّن  
الانسان اللاطبيعي ، لا الانسان الحيوان ، لأن الحيوان يستجيب  
كل الاستجابة الى انتباهيته ؛ أما الانسان اللاطبيعي ، كما أحسن  
النظرة إليه برناردي كليرفو ، فهو دون الحيوان . والانسان  
غير المتيقظ أو على الأصح الانسان للنائم ، يمكن أن يبدو ، من  
الخارج ، غير مختلف عن الغير . ومع هذا ، فإن كل شيء فيه

يبقى معلقاً عن العمل ، لأنه لم يمضِ مرّة الى طرف قدرته الطبيعية ، بل يبقى دون مستوى الطبيعة . وكما ان أعضاء الجسد لا تقوم بوظائفها كاملة عندما تكون كسلي ، فإن التباهة الضعيفة كذلك لا تقوى على التقاط شيء ، وبالتالي على حفظه وفهمه ، فالانسان غير المتيقظ لا يميز قطعاً حالة النوم من حالة اليقظة فيبقى في حالة من التخدير أو أخرى من السهو الذاهل . أما الانسان المتيقظ فيعني الانسان الحقيقي ، أو على الأقل ، الساعي الى البحث عن حقيقته الخاصة . وبما انه دائم الحضور ، يستطيع أن يلاحظ ، فيصير قادراً على أن يحبّ ؛ وكل ما فيه فوري وتجريدي . فيستطيع أن يكمل بحثه في نظام داخلي تبعاً لتساغم في أجزائه ؛ واحتمال كهذا لا يمكن أن يصدر إلا عن توصلوا الى مستوى من الجدارة .

أما بالنسبة الى الآخرين ، فإن البحث يتألف من وثبات وتقهقرات ، من إعجاب واشمئزاز . وحالهم حال ميزان متحرك ، لا تتوفر لهم حالة استقرار ؛ فكل تقهقر يتناسب والتقدم ، والعكس كذلك . وعندما يكون الانسان في طزيق اليقظة ، يمكن أن يشعر أنه سجين ، وهذا ما لا بد منه ، وإلا فإنه لا يفتش ، يجهد المشتاق ، عن باب للخروج . فهناك سجن حجز فيه الانسان ، سجن مبني من الكذب يقم فيه ويحاول

أن يرضى عن إقامته أو هو راضٍ ؛ ولكنه كذب غير متعمد  
ولا مقصود . فليوثق صلته بسجنه ، وليتحام معاناة أي توق  
الى الحرية ، فكل شيء سجن له : جسداً وروحاً . ولنفترض  
إنساناً موضوعاً في قفص ، فيبنا يبقى جسده سجيناً ، ينطلق  
فكره كل منطلق ، وخياله يحلم ؛ ويمكنه أن يستحضر صوراً  
تحملة الى مكان آخر وفي مدى يختلف .

ثم ان الانسان ، الذي كلُّه في السجن ، محتجزٌ في الكذب ،  
يبدو نموذج فوضى شبيهاً بشيء لا شكل له فارغ ، سبق الكلام  
عليه في سفر التكوين قبل خلق العالم . والسجن الذي يقيم فيه  
حظيرةٌ وهم . والهروب من سجن كهذا هو شيء من نظابام  
قصاعدي ، يحتوي على بُعدٍ من العمق يعتبر عن وجوده بسلسلة  
صاعدة مؤلفة من خطوط مخرية . والحبس يغطي كل ما هو غير  
حقيقي وخادع ، بينما التحرر يعني المشاركة الفكرية مع  
الحقيقة المشروعة .

فالعالم الذي أنا موجود فيه ، والذي فيه أعيش ، يحتمل  
إذن ، درجات . ويمكن أن يواجه أيضاً على صعيدين متمايزين :  
وهما صعيديان ، سمياً تسهيلاً للتعبير عنها ، في الغالب ، عالم  
الفوق وعالم التحت . وهذا العالم السفلي معزول ، كأنه جزيرة ،  
محروم من المواصلات ، متروك لنفسه لأنه فاقد الصلات . فيجب

أن يسأل الانسان نفسه : ماذا يمكن أن يحتوي عالم كهذا ؟ انه لا يحتضن ولا يؤلف الجسد ولا الروح كما يجب أن يتم ذلك ، مكتفياً بتناول عمليات الروح والجسد عندما تصدر عن أثنائية أي عن « أنا » سبجينة . والانسان الخاضع لهذا العالم السفلي يمثل الفكرة والعمل يصدران عن عبد . أما صعيد العالم الأعلى ، فإنه يمتد كالسابق الى الجسد والى الروح ، ولكنه ، فوق ذلك ، يحتوي على الفكر وعلاقته بالجسد ، وعلى الروح وفضائها الكوني . وهنا ، نستطيع أن نطرح على أنفسنا سؤالاً : هل يمكن أن نعتبر عن العالم السفلي بكلمة شر ؟ عندئذ نرى أننا نلامس مسألة في منتهى الأهمية . ولقد شغل الشر كل الفلاسفة ، ولا سيما بالنسبة الى علاقة الشر بالله وبالانسان . ففي نظر البعض الشر لا قوة له ، وفي نظر البعض الآخر يتمثل الشر حقيقة في ذاته . وعلى الجملة ، فإنه ينتسب دائماً الى أقاليم مظلمة لا ينيرها الضوء . وسلوك الانسان طريق التحرر لا يحاول تجنب الشر أو الهرب منه ، ولكن يحاول أن يعانیه وأن يتحمله وبالتالي أن يتجاوزه . وهذا الظاهر السلي يمكن أن يتحمل تفسيراً ، كما أن الخارج يمكن أن يصبح داخلياً ثم يعود فيأخذ مكانه خارجياً ، بعد أن يتحمل تفسيراً . وليس للشر قيمة في ذاته غير مادته الخام بانتظار تغيره . لذلك فإن أحكام القيمة لا تصل إليه . ويشبهون

الشر بثقل يحير الى تحت ، اذا لم تتكفل به طاقة تخففه وتحمله  
استبدالاً .

ومقرّ الشر الرئيسي قائم في « الأنا » ، هذه الأنا التي تشبه  
حجرأ صلباً ، زيدت صلابته . وهذا الحجر يبدو مستسلماً  
للاحتفاظ الدائم بطبيعته ، بحكم تماسكه ، وصلابته ، وثقله .  
فإن نفكر ان الشر لا يتغير ، يعني اننا رفضنا التسليم بالحركة  
التي تحييه في الداخل . إذا ، لو أطلقنا على هذا الحجر كتلة  
نيّرة تحترقه ، لرأيتنا ان كل شيء فيه يتحرك : فهو حي ،  
والحي يتغير ، وهو يمتلك مصيره . فليخض الانسان بكل  
طاقته معركة ضد آثامه ، فيرى ان هذه الأنا يمكن أن تدوب كما  
يدوب الحجر . ومن هنا جاءت صورة العسل أو الينبوع الجاري  
من الصخرة التي تكلم عليها مؤلف سفر الخروج وموسى في  
الأعداد ( أنظر أيضاً التثية ، ٨ ، ١٥ ، ٣٢ ، ١٣ ) . فالصخرة  
تفجرت ماء ، وجرى منها صالحاً للشرب ، وهكذا الأنا تتغير ،  
فإذا فرغت من الكثافة الحاجبة الضوء ، تصبح شفافة ، نقيّة  
كالبلور ، ويستطيع ماء الحياة أن يتفجر منها ، واذا ما  
أضيت ، فن ظلمة يطلع نور . ولقد كان الانسان ، في السابق ،  
سجين نفسه ، فيجد أنه لعبة الازدواجية ، أما في حالة سميّه  
للانعتاق ، فإذا هو متحرّر ومحرّر . وهل المقصود أن يُحرّر

ذاته من ذاته بقدر ما يقصد أن يكون خالقاً ، وهل يمكن أن نتكلم في هذا الموضوع على « تجريد الخلق » ، كما فعلت سيمون ويل ؟ يجب أن نتفاهم حول هذا التعبير . ان كلمة « إعادة الخلق » تملك معنى كلياً يتناول الكشف والوضوح ، فأعادة الخلق ، هنا ، خالقة ، وبالتالي تعارض التهديم معارضة مباشرة . وإعادة الخلق ، في نقطتها النهائية ، هي إعطاء صورة حية كاملة . وعلى هذا الأساس فإن مين دي بيران يلحح الى إضعاف صلة الحياة النفسية بالجسد ، ففي هذه الآونة ينقطع الجسد أن يكون حاجزاً ، ويبدو ان النفس التي عادت الى ذاتها لقيت طبيعتها الخاصة . فالإنسان الذي يُعيد خلق نفسه يُفزع ذاته من المظاهر ومن كل ما يخالفها في ما بينها ، وبالتالي من كل ما يفصلها عن ذاتها وعن الغير .

إذاً ، هذه الإعادة الخلق انعتاق ، لكنها لا تجري دون عذاب ، لأنها شبيهة بولادة . فالألم يملك ، في حين كونه تجاوزاً فلسفياً ، صفة مطهر . وفي عودة قامت بها سيمون ويل الى أفلاطون ، ألمح الى لحظة فوضى ارتباك أثناء عملية بناء الذات : أولهما داخل الكهف عندما يلتفت الانسان ويبدأ مسيرته ، والثانية عندما يخرج من الكهف المظلم ويتلقى اصطدام الضوء . وإذا يجد نفسه قد تدهور الى بُعد جديد ، يأخذ في التمتع ،

فجسده ، وفكره ، وروحه يجب أن تعود تلقى الضوء  
المستعد لها . وهذا ما نراه جيداً في أسطورة غورجياس ، وثمة  
من يمضي الى أبعد مؤكداً أن عذاب الروح يساوي بنسبة تتفق  
والإفراط في ضيق علاقاتها بالجسد . ويقتضي الخروج من الأمر  
تمزيق كل القيود ، سواء أكان ذلك بالنسبة الى الجسد أم الى  
الروح . فالجسد يمكن أن يتلقى ضربات وجروحاً ، ويبقى  
حاملاً آثارها . وهكذا يحمل الانسان تاريخ وجوده محفوظاً على  
جبهته مع كل ثنياته وتجاعيده ، والروح أيضاً لها تجاعيدها التي  
تشهد لصحة البحث عنها ، ولرفضها ، ولحبها . فالروح ،  
والجسد ، والفكر تشترك ، كل على طريقته ، في اكتشاف معرفة  
الذات . ولذا فإن إعادة الخلق ، التي ألحنا إليها في ما تقدم ،  
تتناول الجسد بقدر ما تتناول الروح ، والانسان يستوفي  
إنسانيته كلياً بإعادة الخلق التي تتم فيه . وبما أن إعادة الخلق  
هذه ، هي في الوقت نفسه تجديد خلق ، فإنها توصل الانسان ،  
ولو بصعوبة ، الى شرطه الانساني ، فتمنحي كل التناقضات ،  
وكل ازدواجية تستبعد ولو لفظياً .

هنا ، نستطيع ان نستعمل كلمتي طبيعة وطبيعي . ولسنا  
في حاجة الى الاستعانة بما فوق الطبيعة أو بما هو فوق الطبيعي .  
والطبيعة هي فوق طبيعية في نقطتها الدقيقة ، والطبيعي هو



فوق طبيعي عندما يدفع الى طرفه . فالمقصود ، هنا ، ان  
تتناول توسعاً ، وعرضاً كاشفاً ، لا تغييراً في البنية . وعندما  
يبقى الانسان غير ساعٍ الى تحرير نفسه من سجنه ، يصبح من  
صواب الأمر أن يتحدث عما هو طبيعي وعما هو غير طبيعي ،  
عن الطبيعة وعن ضد الطبيعة ، فيبدو بالتالي أنه غير محب  
الحرية ، وانه ، في الوقت نفسه ليس أميناً للطبيعة الانسانية .  
وكما ان دعوة الانسان الذاتية يجب ان تطابق تحرره ، كذلك  
يجب ان تطابق الطبيعة ، في حقيقتها ، صعوده الخاص في سماء  
الذات . وهكذا يضيء المطلق النسبي ، والعنصر اللافاعل  
يصبح دينامياً بموافقة الخاصة ( كينونة العذراء في تعبيرها  
الرمزي ليس لها تعبير آخر ، إنها تشتمل على المعنى نفسه  
الموجود في « الأباتا » : « ليأت ملكوتك » ) . وعلى كل حال  
يجب أن نحافظ على المستويات في تسلسلها . والإضاءة لا تطلع  
من أسفل ، لأن الأسفل لا ضوء فيه ؛ إذا ، ليس في استطاعة  
عالم التحت أن ينير عالم الفوق . ومع ذلك ، فقد تأتي ساعة  
يصبح فيها مستحيلاً أن نتكلم على عالم التحت وعلى عالم الفوق ،  
إذ لم يبق عالمان ، لكن عالم واحد . والانسان لا يشبه  
مسافراً يذهب من عالم الى عالم آخر ، كما نذهب من ضفة الى  
ضفة أخرى ؛ فهو العالم ، وهو يحقق العالم ، وبواقع كينونته

يعمل في التحقيق ، وإذ يُصبح مضيئاً يرسل ضوءه ؛ وبما أنني  
احقق الكائن فيّ فأنا أعطي كائناً ؛ وبما أنني أنا نورٌ فأنا أضيء ،  
دون أن أستطيع أن أضع ذاتي في أمكنة أخرى غير ذاتي ؛  
ولكوني أنا نفسي فأنا في كل مكان . أنا انعتقت وأنا أعتق .

في الوقت نفسه الذي يتحرر فيه الانسان يباشر عمله محرراً ،  
فيتصل بمن هم من مستواه الخاص ، مجرداً اتصاله عن المكان ،  
وعن الزمان ، وعن المسافة . غير أننا لا نستطيع فهم المعنى  
في هذا الصدد إلا عندما نستحضر وجود الناس المتحررين ،  
الذين تركوا لنا مفكرة طريق حجّتهم ، سواء أكانت فيها  
خرافات ، أم أساطير ، أم صوراً أو حكايات تستعرض تجاربهم ،  
المتعلقة بتطور اتجاهاتهم التي تقودهم ، قليلاً قليلاً ، نحو غرفة  
الكنز . ويفترض ان يسبق الدخول الى غرفة الكنز مراحل  
مظلمة ، ونصف مظلمة ، وأخرى منورة ، ونيرة ، ومشعة .  
وحكاية السهروردي الصوفية (الملاك اللازوردي) التي عرضها  
وترجمها هنري كوربان ، مسوقة في شكل حوار ، تصف طريق  
الانسان العارف ، وهو يجتاز الظلمات التي تسبق الدخول في  
النور . وهذا قليل منها :

« - أيها الحكيم ، أين هو ينبوع الحياة ؟

- في الظلمات . وإذا كنت تريد أن تذهب للبحث عن

هذا ينبوع ، فانتعل خفتين مثل خفتي خضر النبي ، وتقدم على طريق نكران الذات مطمئناً ، حتى تصل الى منطقة الظلمات .

— من أية جهة الطريق ؟

— من أية جهة ذهبت ، فإن كنت حاجباً حقيقياً ، فستكمل السفر .

— ما الذي يشير الى منطقة الظلمات ؟

— الظلمة التي تثق بها . لأنك أنت ذاتك في الظلمات . ولكنك لست واثقاً منها . ولكن من اتخذ هذه الطريق ، عندما يرى نفسه كأنه في الظلمات ، يفهم انه كان سابقاً وهو الآن في الليل ، وان نور النهار لم يلامس نظره قط . هذه هي الخطوة الأولى التي يخطوها الحجاج الحقيقيون . . . فالباحث عن ينبوع الحياة في الظلمات يمر في كل أنواع الوجوف واليأس . ولكنه ان كان حقيقة مستحقاً ان يجد هذا ينبوع ، فإنه بعد الظلمات يتمتع بالنور . عندئذ ، عليه أن يحاذر الهرب من أمام هذا النور ، لأن هذا النور ألق باهر ينزل من أعلى السماء على ينبوع الحياة . .

ويكتشف الرائد المهدد ينبوع الحياة الذي هو كنزه ، في

غرفة الكنز . وهكذا وُضعت الأنا الحقيقية مكان الأنا الوهمية ، فكانت له الذات الغائبة .

وفي غرفة الكنز يجب الانسان نفسه ، في الوقت عينه ، مشاهداً ، وفاعلاً وموضوعاً . فكل الأشياء اختلطت ، أو على الأصح ، كل الأشياء اختلاط . وهنا تعلمنا التقاليد : ان الذات ، في رأي أتباع أوبانيشاد ، هي أثمن : « نفسي في عمق قلبي أصغر من حبة الشعير » ؛ وهذه الحبة الصغيرة تمثل كأنها أوسع من الأرض والسموات . وفي الانجيل ، شُبِّهت مملكة السموات بحبة الخردل ( مرقس ٤ ، ٣١ ) .

والذات لا تعاني أي عطش الى الوجود ، ولا أية رغبة في الموت . فهي تعلم ان كل ما يتصل بالزمن زائل . ومعرفة كهذه لا تثير أي قلق ، لأن الذات تشبه صخرة ، فلا تتزعزع .

ولنقرأ في إنجيل متى : « حيث تكون كنوزكم ، فهناك تكون قلوبكم » ( ٦ ، ٢١ ) ؛ « مملكة السموات تشبه كنزاً مخبوءاً » ( المرجع نفسه ، ٢٣ ، ٤٤ ) ؛ وأيضاً : « مملكة السموات في داخل كل منكم » ( لوقا ، ٢٧ ، ٢١ ) .

فالانسان الذي وجد ذاته ، يعني كنزه ، تصبح ذاته سماء مع كل ما تحتمل هذه الكلمة من رموز ، وامتلاء ، وبقاء . إذن ، الذات ستفهم كأنها نقطة ثابتة ، وكأنها محور الدولاب .

هو ينبوع ماء حي" ، فعله متصل بثباته المتحرك . فثابت ، لأنه  
بطل أن يكون لعبة المدّ والجزر ، ومتحرك بتفجره . وفي  
هذا المعنى تمكن كلوديل من أن يكتب في « فن الشعر » ما  
يلي : « لقد سحبت رجلي من الأرض ، ويداي ممدودتان الى كل  
الأيدي ، وحواسي متنبهة لكل الأشياء الخارجية ، ونفسي  
لحواسي ... أنا كدولاب انقلك عن حزامه المشدود به . لم تبق  
حركة بعد الآن ، ولم يبق غير أصل واحد . فأنا أتالم ألم الولادة ،  
وأنا أسقط من حقني ... وأنا أتحمل عذاب ينبوعي » .

والإنسان المتحرر الذي يتحمل عذاب ينبوعه هو ينبوع .  
وإذا كان قد سحب رجليه من الأرض ، ويديه من الأيدي  
الأخرى ، وإذا كانت حواسه الخارجية قد تطهرت ، فذلك  
ليس قطعاً لأنه ترك العالم الذي هو عالمه . فالذي يجري هو  
العكس . فرجلاه ستكونان أشد تماساً بالأرض ، ويدهاه  
ستمتدّان أكثر سخاء تجاه الغير ، وحواسه الخارجية لا تفتقد  
منها الولادة ولا نموّ حواسه الداخلية ، فحواسه التي أصبحت  
أكثر دقة لا تتوافق وتتلاءم والعالم المنظور فقط .

وإنسان كهذا يصبح كاملاً ، لأنه ابن السماء والأرض ، والسماء  
والأرض معاً ، وهما منفصلتان انفصال قسّة . وعلى أساس التعبير  
العادي ، يمكن أن نسميه حكيماً ، كما يمكن أن يواجه كإنسان

متحرر . فاستعمال الصيغ التعبيرية ليس أمراً هاماً ، والتحقيق الحقيقي الذي تجرّبه معرفة الذات يجعل من الانسان : « واحداً خَلِقَ مرتين » ، وهذا ما يعادل القول الآخر « ولادة جديدة » . وعندما تبلغ معرفة الذات هذا الحد ، فالانسان قريب من نضوجه . ولكن الوقوع في تناقض أمر سهل الإدراك ، فيقدر ما يتقدم الانسان في طريقه ، تتقدم معاناته الشعور ، بازدياد بعده عن هدفه . وليس التعب من المسيرة الطويلة هو الذي يحمله على هذا الشعور ، وإنما هو يحس ذلك لأنه أصبح صافياً ، فازدادت ثقته بعدم استحقاقه الجمال الذي يستشرفه ، ولكن إحساسه هذا لم يعتصره بعد . وحقيقة الأمر ، ان جهل الذات ليس جداراً يمكن هدمه بضربة واحدة . وليس هذا الجهل ستاراً يمكن تمزيقه فجأة ، ولكن لهذا التمزيق وذلك الهدم ساعة تسقط فيها الجدران وتتكشف الحقيقة فتعرف على ضوءها الخاص .

### تجربة طالب المعرفة

عندما تم معرفة الذات ، يتغير وجه الانسان . فهي تعدل فيه بقدر ما يعدل الحب . ومن لم يعرف حلاوة الحب ، فليس في امكانه أن يصف تجربته . وما ان تحدث له هذه التجربة ،

حتى تحترق كيانه ثورة فتتغير إيقاع دمه وملامح سحنته .  
فبالنسبة الى من يحب ، لا يوجد شيء خارج الحب . ومعرفة  
الذات تجري احتكاراً بمائلاً ، فهي تلون كل شيء ، دون أن  
يقلت منه أي شيء . وكل حركة مها كانت نافية يُستشعر بها  
وكذلك نبرة الصوت ، والنظر نفسه يشهد بذلك . وهكذا  
تصبح معرفة الذات شبيهة بحضرة يحدث ظهورها فاعلاً دون  
انقطاع ، ولكن معرفة الذات ليس لها حدود . وحدتها لم  
يُبلغ قط .

منذ يبدأ الانسان بمعرفة ذاته ، يمكك بزمام المعارضات  
التي تتحكم بحياته ، وتسيطر على وجوده . فمعرفة الذات إذا ،  
معرفة مستمرة في اكتشاف ذاتها ؛ وليس تناولها بالتعيين أو  
الوصف أمراً ممكناً . ذلك لأنه ليس في استطاعة أحد أن يملك  
امتلاء الرؤية لما لا يراه وهو في الظلمة . والمسوخ ما هي ، في  
الغالب ، إلا امتدادات ظل ، لأن الضوء لا يأتي من الوسط  
الذي كان يجب ان يغمره . فمن هنا تصدر الأوهام والخاوف  
التي تولدها . ومن يعيش على سطح ذاته فإنه لا يصادف أبداً  
عالم الصور هذه ، في مبالغة عرض وتفاعل حركة تفوق  
ما يُرى في مستنقع تفتلي فيه الحياة في أسراب من الحشرات ،

ذات أمسية صيفية . وقد تكون هذه الصور ذات قدرة على إحداث الصوت . وكلما ازداد الانسان توغلا في طريق المعرفة ، كلما ازدادت الأشباح انتصاباً على طول طريقه . ولهذا فمن واجبه دائماً ان يتأسك في حالة من اليقظة لكي يميز بين حقيقة هذه الاشارات ووهما . كما يجب أن يسير طويلاً ليصل الى بحر عارٍ لا شكل له ، قد تركته الحيوانات التي كانت تسكنه ، فأصبح كامل السكون والسكوت . وبعد الضجة ، يبدو للانسان انه أمام إقليم من السكوت المنتشر . وهذا السكوت ليس حقيقة ، يعني انه لا يشير الى قمة ، بل الى أن ثمة مكاناً وسيطاً . إنه سكوت لأن الماضي لم يعد يدخل في الحساب ، ولكنه ليس السكوت الحقيقي ، لأن بعض المراحل لم تقطع بعد . وهناك أيضاً صعوبة مقبلة في نظام الوم ، وهذا الهدوء عقب العاصفة يمكن أن يعتبر سكوناً . وهذا الهدوء في الحواس ، وهذا الاستبعاد للأهواء مهددان بخطر مواجهتها كثرة جاءت نتيجة لبحث طويل . ولو ان انساناً عاش خالداً في جوف الأرض ، عائشاً ، مثلاً ، حياة شبيهة بحياة المعدنين ، على مخالفتهم في أنه لا يظهر أبداً على سطح الأرض ، لكان مستحيلاً أن تلمح له بالنظر الى شروق الشمس ، أو الى ارتفاع جبل ، أو الى طيران عصفور . لكن لو ان هذا الانسان نفسه



تتبع مرة واحدة بأعجوبة الفجر ، أو بحلالة ذروة ثلجية ، أو  
سمع صوت عندليب ، أو أبي الحنّ ، فإنه لن ينسى الاعجوبة  
التي لا تترجم أعجوبة ظهور الضوء ، ولا سماع أغنية من أغاني  
العندليب . وهكذا الحال بالنسبة الى من استطاع أن يطمئن  
الى ذاته ، اثناء تلك اللحظة الحاطفة التي يجري فيها لمعان  
البرق . انه بهذه الالتماع أدخل في بُعد آخر مجرد من أية علاقة  
مع وجوده السابق ، أو وجود الغير ممن لم يأخذوا اطمئنائتهم  
الى مثل هذه الالتماع . والانسان الموضوع في السكوت ، الذي  
هو على الأقل موقوف الحركة أو هو صوت امتلاء النغم  
وكليته ، ينتظر ، ولكنه يأتي يوم يفهم فيه ان السكوت  
الحقيقي ليس خارج الضجة ، بل في الحقيقة هو امتلاء  
التوافقات ذاتها .

ومع نفوذ الانسان الى قلب معرفة الذات ، يتلقى فوراً  
تجليات للسكوت . فيفهم أن لا شيء مما هو حقيقي يمكن أن  
يفسر بالكلام أو الكتابة . فالكلمات أنواع من الحاضنات شبيهة  
بعوارض السلم ، يرتكز فوقها مؤقتاً ؛ ولا بد من تركها . وفي حضانة  
السكوت يجري كل استلهاام ؛ فتكتكة الكلمات عند النطق بها  
أو كتابتها يُعمق السماع ؛ فهي معرفة لا تبوح بسرّها إلا في  
الصمت ، فعندئذ كل شيء يملك صدى وكل شيء يبدأ نموه .

وتجربة الانسان العارف هي تجربة انسان داخلي ، تتناول الوجود وبحكم هذا تناول لا يمكن أن نجعلها موضوعية . فترجمة المدركات الذهنية ينبوع صعوبة . وبما لا شك فيه ان اتصالي بما هو مدرك ذهني يقيم الدليل على حضور الضوء كما تقيم الدليل صفيحة ساخنة على تماسها مع النار<sup>١</sup> . وعلى كل حال ، يجلي تجربتي خارجية ، وعلى الأقل ، في إصراري على اظهار ما لا يمكن الاتصال به ، يمكن ان أفسد فيها المحتوى ، فيضعف حجم تجربتي ، وفوق ذلك يمكن ان أتعلق بانعكاسها والنظام ، في أن تصبح التجربة مجردة من كل صلة بشفافيتها الخاصة ، وفي ألا نوقف الفكرة عند إشعاعها . وهكذا يكون جعل التجربة خارجية خطراً في ان تترجم بصورة خاطئة ، وأن تصبح دقيقة يعلق بها من لاصقها ، أو أن تصير معالجتها بسخرية سيياً لاختفاها . والرغبة في العطاء تعرضني لخطر وضعي أمام ضرورة الكشف عن نفسي ، وإذا كان الغير ناضجاً لدرجة يستطيع معها أن يفهم ، فان الكلمات تبدو فضلة ؛ وبعض التلميح ، أو على الأصح ، السكوت يبدو كافياً . وعلى العكس ، فإن الكلام الى محدث غير قادر على استيعاب ما يلقي اليه من

(١) كياركينفارد وسيمون ويل برهان أمثلة بمائة .

معانٍ ، خطأ فادح . والانسان الضعيف النوق يمكن أن يفضل شيئاً من شورباه جيدة على صحن من الطعام الشهي يسيل له اللعاب ؛ وهكذا الحال بالنسبة الى من لا يستطيع أن يقدر الأشياء حق قدرها ، فيتغذى بالشاهد من نظام لا ينتسب اليه ويجهله كل الجهل كلفة لم يتعود استعمالها .

لا يمكن للتجربة الروحية ان تتجلى للعيان إلا في رموز . وعلم الرموز يجعل اشارات ، فهو يدل على معنى ، ويؤيد ، ويقود ، ويشير ، ويوحى . والرمز شاهد الحقيقة ، ولكنه ليس الحقيقة نفسها .

معرفة الذات تتمثل كإيحاء محدد الوجود للحواس حيث يوجد « قبل » و « بعد » . وبين الاثنين ، حصل الإيحاء كتجاوز للمحسوس بقدر ما هو اتصال بالذهني . وإقامة الشاهد لهذه التجربة بالرموز ، هو افتراض ان عند الغير تجربة مماثلة . والروح لا تتكشف للإنسان دفعة واحدة .

وفي هذا الصدد قال نيقولا بيردييف ، في كتابه « الحقيقة والإيحاء » ، ما نصه : « الروح لا تسلم ذاتها إلا قليلاً قليلاً ، وفي كل تسليم تخسر من ضوئها بفعل الخسوف الذي يتأتى عن متابعة السعي لجعلها في الموضوعية » وقال أيضاً : « في إقامة المعارضة بين الإيحاء التاريخي والإيحاء الروحي نقيم الدليل فقط

على انعدام التفكير ، الى أقصى حد ، في ما تحمل هذه المعارضة من معنى . وهذا الذي نسميه « إحياء تاريخياً » ونتمسك به بصورة خاصة ، ليس ، في نهاية الأمر ، إلا إيجاد الرمز للإحياء الروحي تحت شكل ميزات ، وإشارات مستعارة من عالمنا عالم الحوادث .

وهذا الإحياء لا يصح ان يفهم أو يُفسّر أو يترجم كواقع يطفو على الخارج . فالحوادث التي تجري في كون الأرواح ، تنعكس كل مرة على الطبيعة وعلى التاريخ .

والإنسان يتلقى ، بواسطة معرفة ذاته ، الحقيقة ويعرفها ، والاتّباع الذي تحدّثه ، خارج عن متناول العمل أو المعرفة . وليس المعنى توسعاً داخلياً ، ولا عنصراً جديداً بارزاً ، ولكن المعنى إذكاء الحياة في خاصة أصيلة . وقد شرع أفلاطون ومن بعده أغسطينس هذا الموضوع . وفي هذا الصدد نرى ان أسطورة استحضار مخزون الذاكرة للإجابة ، يعني استحالة أن نتعلم ما لم نعلمه من قبل . وهكذا فإن كلمة بحث تأخذ معنى كلمة لقي ما كان قد أضاعه . وفي الحقيقة ، ان في هذه التجربة مثقلاً الى معرفة الذات ، قبل أن يكون فيها مدخل الى الكلام على نظرية الاستحضار من الذاكرة ، ولعله من الأصح أن نثير هذا الإذكاء الحيوي ، الذي ألحنا إليه في ما تقدم ، فالإنسان العارف يملك

تجربة الحياة : إذ ان الانسان الذي اطمأن الى ذاته ، أصبح  
إنساناً مستيقظاً .

## الجمال والمحبة

بما ان الحاجز ، الحاجب ما بين العالم المنظور والعالم غير  
المنظور ، قد ألغى ، فإن جمال الفضاء الروحي في نورانيته ،  
يتفجر . فالجمال الذي لم يُخلق متصل بنموذجه المثالي الذهني  
والجمال المحسوس يتكشف في مظهره المقيس بوحدة الحس  
والضوء . والانسان ، من الآن فصاعداً ، لم يعد يملك حق التحول  
عن الطبيعة ، فقد أصبحت بالنسبة إليه انعكاس الألوهة ، بل  
مرآة تمثل الصورة الإلهية ، صورة تستدق في مطابقتها بقدر ما  
تكون المرآة تقية في عُرُها .

وفي العصور القديمة ، لعب جمال العالم دوراً كبيراً ، في  
الصين ، والهند ، واليونان . وعندما تحدثت ميخائيل ويل عن  
الرمزية قالت : « إن ميل الروح الطبيعي الى محبة الجمال الفخ ،  
الذي غالباً ما يستعمله الله ليفتحها للنسمة العلوية ، هو الفخ الذي  
أخذت فيه كوريه . . . فقد وقعت في يدي الله الحي . وعندما  
خرجت من أمره ، كانت قد أكلت حبة الرمان التي كانت  
تقيدها الى الأبد . فلم تعد عذراء ؛ أصبحت زوجة الله .

في « المأذبة » تكلم أفلاطون على علم الجمال<sup>١</sup> ، كنوع عجيب من جمال الشعور والاعتراف يتوصل إليه الانسان عندما يستطيع ، في القيام بفعل الحب ، أن يحافظ على النظام . ففي رأي أفلاطون « ان الجمال الذي عناه لا يبدو وكأنه كائن في وجه أو في يدين ، أو في أي عضو آخر جسدي ، أو في أية فلسفة معتقد أو علم ... انه الجمال نفسه ، من أكسير وحيد ، خالد الحقيقة » . وعندما قرأت سيمون ويل هذا النص أضافت قائلة : « عندما يبدأ إنسان ما أن يمتع نظره بهذا النوع من الجمال ، فإنه قد بلغ الكمال تقريباً » .

والمسيحية ، في حدود أمانتها لأصالتها ، قد حافظت على هذا المبدأ الجمالي . كما انه تعزّر دائماً عند الآباء اليونان ، ولا سيما في مؤلفات غريغوريوس دي نيس<sup>٢</sup> الذي تتضح فكرته من خلال بنية أفلاطونية . وسنرى ، على كل حال ، ان بعض أشكال من التآمرين ، غايتها الكمال الروحي تقاطع الجمال في اعتمادها عن المنظور والمحسوس . وعندما تأسست في المسيحية نزعات جديدة ، لم تعد الوحدة في مآمن من المحافظة عليها . وفي مجرى التاريخ اقترب المسيحيون من شجرة الخسير والشر ، ينبوع

---

(١) إقرأ لدى منشورات عويدات كتاب النقد الجمالي - سلسلة زمني

علمًا - رقم ٦١ .

الانحطاط والخطأ ، رامين الى الأضداد . وهكذا استمرت  
الخطيئة الأصلية في تجدد دائم .

والصوفية لا توصي قطعاً برفض المتطور والمحسوس . ولكنها  
تطالب بالاطمئنان الى الحمار المفشي الضوء ، لكي يتسنى لها  
تغييره الى مرآة . . . . . وعندما يتحول الحمار الى مرآة يخرج  
الصوفي أو من هو من قبيله منتصراً من التجربة . . . . . والانسان ،  
على هذا المستوى يفهم ان الجمال البشري مجلى الجمال الإلهي .  
وهكذا فإن الجمال سمة مقدسة ، تُفشي سرها . .

ولقد قال هنري كوربان : ان أصالة الطريق المسلوكة ،  
هنا ، هي في أن رؤية الله هذه ، تقوم في ألا يتحول الانسان عن  
الطبيعة ، ولكن في أن ينصب على رؤية جاهلها ، وأن يرى  
مباشرة ( لا مداورة ) ، دون وسيط ، ولا استراحة توقّف ،  
الجمال الإلهي .

وهكذا فالجمال لا يُمحي ، بل يتحول الى شفافة . وبفضل  
هذه الشفافة ، يظهر الله نفسه في مرأى الانسان . وكل شيء  
يصير « عيناً ينظر بها الله الى ذاته » . وقد اعتمد إيكهارت  
تعبيراً مماثلاً إذ قال : « العين التي أرى بها الله هي العين نفسها  
التي يراني الله بها ، فعيني وعين الله عين واحدة ، ورؤية واحدة

ومعرفة واحدة ، ومحبة واحدة <sup>١</sup> ، وعلى مختلف الأصعدة تتمثل وحدات الحس والضوء التي هي بمثابة عيون ، لأن الأكسير الإلهي قائم فيها بصورة لا تدانى .

كل سرّ الحب المخلص يكون هناك : فليس من الضروري أن نلفته الى الجمال الانساني ، ولا أن نلفته عنه . وليبق النظر مستقيماً ، دون التفاف ولا تجاوز ؛ ودون أن يخفي أو يُموه ما ما يبدي ، ودون أن يتجاوز جدارته الخالقة ، ولا وظيفة وحدة الحس والضوء .

وبعد أن يورد هنري كوربان القول المأثور : « الله جميل ويجب الجمال » ، يضيف : « ليس الجمال مجرد نسبة بسيطة إلهية بين نسب أخرى . وإنما هي النسبة الأساسية . ولذلك فإن الله نفسه خالق إيروس <sup>٢</sup> وحقيقته ، يعرّم خلقه مرتين : خلقه في مروق عن الآداب العامة وهو تدنيس له ، وخلقه في رياضة روحية ، وهو خلق يحمل صفاته بالولادة ، سواء أكانت لإنجاحه أم لبؤسه ، وفي هذا نفى له .

وتمييز الجمال في كل الكائنات علامة نضوج ، وبالتالي علامة تحرية . وإذا لم يقع الرائي إلا على ما في المرثي من قبح ، فعنى

(١) . السر الالمانى الثالث عشر ، باريس ، ١٩٦٩ .

(٢) إله الحب عند اليونان . يمثّل في ملامح فتى جميل . ( المترجم )



هذا قربي الى القبيح . فالجمال لا يظهر إلا في حدود قدرة الرائي على اكتشاف بعده الداخلي ، وتحمله التطور الذي يُجربه التغير الشكلي . وعندما يكون قلب العارف قد تغير شكله ، فكل الكون يتجلى في وجهه المكوّن من الجمال ، والنور ، والامتلاء الانسانية . لا شيء منفصل ، لأن كل شيء يتسج عن أعجوبة الوحدة في تفاعل الأضداد . فتكاثرت وحدات الحس والضوء يتجاوب والأشكال المختلفة التي يتجلى فيها الجمال . ومن ينظر مختلف مشاهد الجمال لا يشدّه إليه ، في الحقيقة ، غير مشهد واحد : الجمال غير المخلوق . والجمال ضريب في الجمال ، والوحدة في الوحدة ، « ... يوجد مضروب الوحيد ، ولكن هذا المضروب هو كل مرة واحد دائماً » . فالحب ، والحبيب ، والحبّ حاصلهم واحد . وقد قال جوان تسي ، في هذا الصدد : « الانسان الكبير ليس في الواحد ، وحده ، لأن هذا يفترض تناقضاً ، وإنما هو الواحد » . وهذه الوحدة تتسج عن مرأى الجمال الذي يولّد الحب .

عندما يأخذ الانسان ، العارف ذاته ، في الاطمئنان الى جمال الفضاء الروحي ، يبطل أن يكون الحب أو المحبوب ، ليكون الحب . فينشر الحب كما تنتشر نار تشع حرارتها وضوءها . وتصير أغنيته شبيهة بنشيد الأنشاد ، الناتج عن

أعجوبة الوحدة . فعلى المستوى البشري ، الشديد يضع موضع التمثيل رجلاً وامرأة ، أما على صعيد الفضاء الروحي ، فإنه يعود الى اعتماد الكون كله .

لا مكان ميمزاً في قلب من أصبح حباً ، فالحب لا يكون ملكياً أبداً . وهو يعطي أكثر لمن رغباته الحادة وسعت قدرته على اللبول والموافقة . والحب كالشمس يدفع حرارته وضوءه دون تمييز . فإقامة الفوارق ، والسخاء لواحد ، والرفض للآخر ، والحاجة الى متسع من الوقت لتثبيت الثقة التي تدهش كل هذه دلائل على أن التوصل الى الوحدة لم يتم . ولغة الحب ، في إبان سلطته ، تتجاوز كل الحدود التي ما برحت الازدواجية والتمييز يطيأنها . والمستفيدون ، بما أنهم مختلفون ، وأحد يتمدح حرارة الهبة التي تلقاها ، والآخر يشكو فتورها ، ولكن كل ما يصدر عن الحب مماثل . أما الانسان الذي يبقى في حدود المحافظة على القانون ، فإنه يقوم بمخالفة ، إذ يميز ويصنّف ، ويقسم . وعندما يجد نفسه على ممر الحب يرى انه ما يزال يجعل ثقله النوعي ، وعندما يتوصل الى معرفته ، يستغو في البذل من ذاته تبناً لتسلسل الخلق ، وكل واحد ينال بنسبة ما تكون سعته الخاصة . والحب لا يحزن لكونه لم يحب . ثم انه لا ينسى أبداً ما هي قرابته ؟ أو ليس في عُرْف أفلاطون ، ابن الفقر ؟

وهكذا يفتدو الحب والجمال شبيبين بظرفسين اجتماعيين .  
وطريق معرفة الذات أدت الى الملاقاة ، أو على الأصح ، الى  
عرس الزمان والأبدية . وفي لحظة هذه الوحدة ، يتم كل شيء .  
وليس من قصد للتخلص من الوقت ولكن لفهم فقدان المعارضة  
بين الوقت والأبد . ولقد قال مكسيم العرفان : « الدهر هو  
الزمن المتحرك والزمن هو الدهر مقاساً بالحركة » . أما الهند  
فتقول : إن الزمن يدعو الجهل والألم الى الظهور ، كما يدعو  
الرغبات والأهمية التي تعلق على ثمار العمل . ثم إن المدة والأنا  
ليستا غير أبنية وهمية روحية يتعلق بها الإنسان ، ومتاه روحه  
يبعث على الضجر ؛ والإنسان مأخوذ بحلقة جهنمية يتلاشى  
فيها : « العدمية مؤقتة وغير متقطعة . وبفضل معرفة الذات  
تغير شكل الزمن ؛ ألم يكن الإنسان في المسيح ، « ابن القيامة » ؟  
( انظر لوقا ، ٢٠ ، ٣٦ ) .

وهكذا كل شيء يبدو أولاً اتحاداً ثم عرساً . وموضوع  
الاحتفال بالعرس يعلن رسمياً وحدة الإنسان . والعالم المصغر لم  
يعد ، في داخله ، منقسماً على ذاته ، وخارجه شبيه بداخله .  
ومن هنا رؤياه الجديدة : رؤيا الإنسان الواحد من خلال جميع  
الناس . والفكرة الهندية توصي بأن يتذكر الإنسان كينوناته  
بجملته لكي يطهر نهائياً تذكاره ويثير ذاكرته . ودون أن نلتزم

هذا القانون الانتقالي ، الذي نرى من الخير أن نفسره تفسيراً صحيحاً ، فإن ذاكرة الانسانية تبقى حاضرة في الانسان ؛ وفقدان الثقة الجماعية الذي عرضه يوثق ، ليس له معنى آخر . والانسان عندما يشمل نفسه ، يشمل الانسانية جمعاء . إذ ينتشر لور جديد يحو التجاعيد والجروح المقترنة بالزمان . ثم يفشّي فتوة لا سلطة للزمان عليها ، وهي فتوة وصفتها كل التقاليد .

### الحجم الكوني والوحدة

أن يعرف الانسان نفسه ، هو أن يتوصل ، ولو بصعوبة ، الى الكون . وليس المقصود بهذه المعرفة معرفة الكون او العالم ، ولكن معرفة النظام ، والوضع ، ولا سيما معرفة الترتيب تبعاً للمفهوم الهيرقليطي . فالكون يحمّل الصفة الإلهية والصفة البشرية ، فهو مكان التقائهما وتبادل تأثير إحداها وضغطها على الأخرى . وهذا التعبير يعني في عرف هوميروس «زينة» ؛ والزينة تزيد في قيمة من يلبسها ، وهي تبرز وتقدم الشاهد ؛ وليس لها من معنى إلا بفضل من يلبسها . ولهذا فإن جان بوفريه ، عندما ذكر هيرقليطس قال : « ... ما هي إذا ، هذه الحلبة العريقة الوجود ، التي ترسل شررها الى الكل والتي منها يرسل الكل

شرره ؟ انها الهوية السرية لما تبذل جهدها الأرواح الضعيفة  
في سبيل عكسه ، وفصله ، ومعارضته ، ككثير ملائم  
للذوق :

« النهار والليل - الحرب والسلام - الشتاء والصيف -  
الخصب والجذب .

« الحلية ، والزينة ، والتبرج ، هي الاقتران بالضد في كل  
الأشياء ، ويفضل هذا الاقتران تشابه سرّاً والقوس ، التي لا  
تدفع السهم الى الأمام إلا يجذب الوتر الى الوراء ، أو تشابه  
والقيثارة التي لا ترن إلا في تحرّكها .

وقد كان من الملائم أيضاً أن نضيف الى سلسلة متناقضات  
النهار والليل ، والحرب والسلام ، والشتاء والصيف ، والخصب  
والجذب ، أزواجاً أخرى من المتناقضات ، كالمذكر والمؤنث ،  
والخير والشر ، والنور والظل ...

أن يملك الانسان فهم الكون ، وأبث يثير فيه هذا الفهم  
حيوية ، فذلك يعني اجتياز الحدود التي فرضتها الازدواجية .  
فعالم الازدواجية هو عالم الانسان سجين جهله ذاته ؛ وهذا  
الكون لا يستطيع أن يكشفه في الخارج ، ولكن في قلب  
داخليته . وهوذا هيرقليطس يثير معنى موضوعه ، قائلاً :

الداخل ، هو نفسه ، الذي يحيا والذي يموت ، والمستيقظ

والنائم ، والفق والشيخ ؛ في كل مكان الواحد زواج الآخر ...  
هي دائماً وحدة الواحد في الآخر ، كما جاء أيضاً في قصيدة  
بارمينيد<sup>١</sup> المطوّلة . وهذه الوحدة ، بين الداخل والخارج ،  
نتيجة نفوذ المستوى الروحي الفضائي ، موجودة في الانجيل ،  
على حد قول توما ما يلي : عندما تجعلون من اثنين واحداً ،  
وتجعلون الداخل كالخارج ، والخارج كالداخل ، وما هو فوق  
كالذي هو تحت ، وعندما تجعلون الذكر مع المرأة شيئاً واحداً ،  
في شكل لا يكون فيه الذكر ذكراً ولا المرأة امرأة ... عندئذ  
تدخلون في الملكوت السماوي .

وليس للتقاليد الشرقية الكبيرة لغة تعبيرية أخرى . فمعارضة  
ما هو في الخارج ، والأخذ به ، تتمثل في زوجين من الأضداد ،  
وتقسم لعبة التناقضات هذه هو شكل من التيه ، أو على الأصح ،  
هو معنى التيه ذاته . والتائه هو الانسان الذي يعتقد انه مقيّد ،  
ولكي يتحرّر ينتقل من ضفة إلى أخرى ، بما يسميه : وحدة  
وقمة ، مذكراً ومؤثراً ، ضوءاً وظلاً ، ولكنه يبقى عطشاً لا  
يعرف الشبع أبداً ، منفسخاً إلى فسختين ، تسحقه الازدواجية  
التي تمزقه .

---

(١) فيلسوف يوناني ( ٥٤٠ - ٤٥٠ ق. م. ) له قصيدة مطوّلة « في  
الطبيعة » يقول فيها ان الكون : أبدي ومستمر ، وثابت . ( المترجم )

وقد تلبّته في الرومان ذوق معارضة الحكمة بالعلم ، بينما كان اليونان يجهلون هذا الفخ . كما انهم لم يفصلوا النظرية عن الممارسة ، معتمدين لهذا المقهوم ، ما جاء في أقوال بعض الأدباء اليونان ، ان النظرية تؤلف الشكل الأرفع للتطبيق والممارسة .

لقد كانت هذه المشابهة الشاهد الدائم على تقصير الفكر في مهمته ، ثم ان المعارضة كانت تبدو وكأن العين سريضة فتضاعف الصورة في أبيض وأسود ، في حقل رؤيتها . والمهم في هذا أن نمسك بالترجيح ، وبتعاير كفتي الميزان بين الأضداد في تزوج أحدهما نحو الآخر . وهذا النزوع ينتهي الى تناغم . والعلاقة التي تستطيع أن تبدو معوّلاً عليها ، في بعض الحالات ، هي دائماً أساسية .

غير أن اكتساب معرفة الذات يتيح للانسان أن يتفطنت من المعارضات المتولدة من المتناقضات السابقة وليدة عالم الازدواجية ، وهو عالم يتفصل فيه الانسان منذ وصوله الى المعرفة ؛ عالم قال فيه المسيح : ألا نصلتني من أجله لأنه عالم وهمي . والانسان العارف ذاته لم يعد فريسة رغباته وأهوائه ، لأنه ساهم في الوحدة ، إذ توحد في ذاته . وكذلك ، لم يعند مجروحاً ولا معذب القلب ، لأنه لم يبق للقلق سلطان عليه ، القلق المتناول وجوده ، كما لم يبق من مجال للافتراءات الصادرة

عن الغير . وعند بلوغه الضفة الثانية ، القائمة عبر الزمان والتاريخ ، يعرف حالة من الصحو ، والسلام ، والفرح . وعندما يبلغ هذا العارف ذاته صيرورته إنساناً جديداً ، واحداً وُلِد مرتين ، يتقلت من عالم الازدواجية ، الذي كان منتسباً إليه بولادته . وهكذا يجد حالته الأصيلة ، الحالة التي سبقت ولادته .

وعند كل صعيد يجتازه المدعو الى معرفة ذاته ، وعند كل نداء داخلي ، يجب أن يقول نعم ؛ وهذه النعم استقبال وموافقة . وفي هذا الصدد يقول نيتشه : « انا نعمك الى الأبد ، أيتها الأبدية ، لأنني أحبك ! » .

وقبل أن يتوصل الانسان بصعوبة الى فهم الكون ، كان مأخوذاً بوحده وانفراده . وبتقلته من النزعة الجماعية كان يجابه العزلة ، كما يجابه الوحدة . وهكذا قدر أن يتحمل المساواة والعزلة الخلقية التامة ، وأن يفرق في اليأس بعد أن أمسى فريسة دوار يجره في الفراغ . وعليه أن يثابر محروماً من أي تعزية أو ملجأ ، فيبدو عندئذ شبيهاً بإنسان ضل في قفر ، فهو يفتش عن آثار أقدام بشرية ، أو خطوات قافلة ، وعن واحة وبئرها ، أو أي حامل ماء . يفتش فلا يجد غير جفاف الرمل والريح . ويحمله الاضطرار فيلتفت الى نفسه ، في حركة تحوّل



نحو داخلية ، وهكذا ينجو . وقد كان يفتش عبثاً في الخارج  
عن شيء يملكه في الداخل . كل شيء قد رُذِّ عليه مئة ضعف :  
فلا عداوة ولا عزلة بعد الآن ، بل هناك الحب ، وبالحب الاتحاد  
مع كل ما هو « كائن » .

وعلى هذا الأساس جاء هذا النص الشعري لكلوديل في  
قصيدته الثانية من قصائده الخمس الكبيرة :

« حيثما أدرت رأسي ، أواجه اليوم الثامن لبدء الخليفة !  
فينفتح العالم ، ومنها اتسعت مجموعة العناصر التي أتيناها ، فإن  
نظري يخترقها من الطرف الى الطرف ... من طرف عالمي الى  
الطرف الآخر ... وقد نصبت شراك معرفتي الوسيعة » .

هذه المعرفة تتطلب الموت في سبيل الأنا - ينبوع الجهل -  
الذي وصفه حكماء الشرق ومتصوفو الغرب . وهذا الموت يمثل  
حشريات الاحتضار ، المتأتية من الانسان نفسه ، ومن أخطائه  
الشخصية . وقد أعطى الرهتاد المسيحيون ، في الغالب ، أهمية  
كبيرة جداً للعذاب . وفي حالات كثيرة اكتسبت حالة الألم  
الصوفي ، في أواخر القرون الوسطى ، صفة من صفات اللذة  
الجنسية في الألم ( المازوشية ) ؛ وهكذا اكتسب العذاب صفة بذاته ،  
فأصبح حالة ؛ ولما كان العذاب درجة عابرة ، كان تركه يتركز  
ليستمر خطأ أساسياً . والاحترام الخشوعي للصليب ، يبسود

غالباً ، ترجمة خاطئة للمعنى الذي يحمله الصليب ، انه يشير الى المرحلة الأخيرة قبل القيامة ، ليبدل على وقف التيه ، والازدواجية ، من الآن فصاعداً ، أمست مستمرة . فصليب الحطة أصبح صليب النور ؛ هذا النور الذي يتناول معناه في أدق وجوهه .

وعندما يحصل تجاوز المعارضات وتتركز الوحدة في الكائن ، فإن العالم وازدواجيته يغيرهما النسيان . وهكذا تم عملية كشف واسع ، إذ كل شيء يؤخذ على مستوى كان في ما مضى مجهولاً ، فأصبح مكسواً بجماله ، سواء أكانت المعنى سويقة عشب ، أم زهرة ، عصفوراً أم الانسان ذاته . ويظهر نور جديد يحو تجاعيد الزمان ، فيبدو كل شيء في فتوته الأبدية ، في حالته الأصلية . ولم تعد المسألة وجهاً أو شكلاً خارجياً لكائن مما تتناوله المينان . فالانسان الموحد يملك نظرين . ونظره الخارجي محروم من أي فضول معرفي ، فهو يشاهد ولكن ليس ليحفظ مرئياته ويتعلق بها . وهناك نظر آخر يضاف الى هذا الخارجي ، هو نظر داخلي يعين على تمييز الأساسي من الوهمي ، بصورة صادقة ، وذلك بتفكيك فوري يتناول التشبيك المتعدد . والنظر الداخلي لا يقتصر على ملاءمة جعل الأفكار داخلية ، ولكنه يتعدى هذه الملاءمة الى التطهير بالمعنى

الماورائي للتعبير . إذ يحدث في الكائن نوع من عنصرية الروح .  
وأكثر من ذلك ، فالنظر الداخلي يجتاز المظاهر الخارجية :  
ودون بوح ، يكشف بسبق النظر الصادق ، الحالة غير  
الداخلية . فإنه يقرأ في قلبه ، مع انه فاقد الحكم بالنظر ؛ لأنه  
يرى هذا الغير كما يرى ذاته ، لأنه هو هو .

إن نتائج الحالة الموحدة لا حدود لها ، إذ انها تغير الوجود  
بقيادة النظر والقلب . وفي حالة انسحاب الحواس الخارجية من  
عالم الازدواجية ، تولد الحواس الداخلية وتنمو . ولهذا ما من  
حاجة في الهند لطرح المسألة خطأ على حكيم ، بل يكفي  
إلقاؤها بصيغة شفوية . والحكيم يستطيع إعطاء حل بصيغة  
خطابية أيضاً . وهناك حالات أخرى يستطيع فيها التلميذ  
التقاط الجواب داخلياً دون أي تبادل كلامي . وأكثر من هذا ،  
يستطيع تلميذ ان يتلقى تعليماً يتناول مواضيع لم يعان ضرورة  
للبحث فيها . ولكنه ، بعد ذلك ، يتنبه لها فيثيرها بصورة غير  
واضحة . وفي نصوص الشرقيين وصف الحالات تمكن فيها المعلم  
والتلميذ ، وهما على مسافات شاسعة ، من الاتصال احدهما بالآخر  
في سكوت داخلي : سواء أكان واثقاً أم غير واثق فإنه يقدم  
نفسه للقراءة بالنظر . وفي المبادرات التي قدمها بعض حكاه  
إلشريق ، وخاصة في الهند ، على سبيل المعونة لتلاميذهم كي

يتجاوزوا كل ازدواجية ، ما يعينهم على أن يتوصلوا ، ولو بصعوبة ، الى حالة أخرى تغير الجسدي أيضاً كما تغير الذهني . ولقد قلنا ان هذا التغير الشبيه بتغير الهيئة أو التطور المحدث تبديلاً كاملاً يتم في النور . ولم يبق هناك من ظل لسبب وحيد ، وهو ان الظل يرافق الازدواجية وحدها ؛ فالوحدة هي في أساسها مضيئة . والنور الطبيعي رمز الى النور الالهي . وكما ان الشمس تنير الخلق ، معطية ضوءها بسخاء غامر ودون تمييز بين مستفيد وآخر ، هكذا يستطيع الانسان ان يتلقى عطية النور الأزلي ، يعني الطاقة الالهية . وهو النور الأزلي مصدر وحدة : « فانه هو الذي يعمل ؛ والانسان يتلقى . وعندئذ فانه لا يعرف لا زماناً ولا مكاناً ، ولا ولادة ولا موتاً ، ولا جنساً ولا عمراً ، ولا شرطاً مجتمعياً أو درجة تسلسلية ، ولا تعاريف أو تحايد أخرى بما عرفه هذا العالم .

نور كهذا تلقاه بعض المتصوفة ، ووحدهم وعوه . وليس من جهد ديني يستطيع أن يؤدي الى استكمال روحي : فهذا الاستكمال هبة إلهية مجردة تماماً من العلاقات بأية حالة مرضية ؛ وفوق هذا فانه لا يحير أية نتيجة شبيهة بالانحطاف الروحي ذي الأسباب الروحية الجسدية . وانسان النور هو من المختصين بنظام آخر : نظام الروح .

## التطهير والوصول الى السمو

يتم التطهير بالتخلص من الثانوي والوهمي لمصلحة الاسامي ؛ وبالانتقال من العدمية الى الحياة ، لكي نجعل الجسد والروح في تصرف الفكر . فالألم الذي نحسه يكون بنسبة ملائمة لتعدد الارتباطات ؛ وهو يرفع أيضاً من المستوى المتناول . وفي المصهر يجري تغيير المعادن ؛ وطاقة النار المطهرة تتناسب وخصوص الذهب . والتقشقات الخارجية ليست ذات أهمية إلا بمقدار ما تلاثم تكاملاً داخلياً ، وإلا فانها تبقى مادية مجردة من كل نجوع . وليس لحالات الزهد من مبرر غير الاستجابة لدعوة شخصية يكتشفها الانسان نفسه ، ولا يستطيع أحد أن ينهب اليها من الخارج . والصعوبة قائمة في التحول عن خلق عالم مغاير الطبيعة وليد الخيال والأحلام . ولهذا فان تطهير الذهن والقوى المتخيلة ، والذاكرة ، يمثل قيمة أصدق من الصيام . كما ان تطهير الأفكار تفوق فائدته فائدة أي نظام تقشف يواجه في ماديته . والإمساك عن ركوب الأهواء ، أو على الأصح ، الامتناع عن الرضوخ لها ، تدشين لكل مسلك . والتحرر من الإفراط الذهني ، ومن الفضول الذي كثيراً ما ينتج عنه ، هو أمر أكثر حدوثاً . والامتناع عن كل حكم يتناول الغير ينتج عن

تفهم أوسع أيضاً . وعندما ينقطع الانسان عن المشاهدة ، يكون قد بلغ بداية التحرر .

وهكذا فان التطهير يمتد الى الوعي واللاوعي ، يعني الى الانسان في كليته . وفي حالة إلغاء « الأنا » ، يمكن أن يكتشف بُعد العميق . هذه هي عُدّة التطهير التي تستمر موضع عمل ، مدة كل الوجود على مستويات تزداد دقة يوماً بعد يوم . وفي حال تحقيق تقدمات فإن حوائل جديدة تظهر فجأة . فتخليص الذات من القشور التي تحبسها يُعدّ العمل الكبير الذي تقوم به صناعة الخنبياء .

الانتقال بمعرفة الذات معركة وقاتل دائم . والأوصاف التي يعطيها لها المتقشفون والمتصوفة توضع تحت الحقيقة . فالحقيقة مأساوية ، ولهذا فان تجربة من هذا الصنف لا يمكن نقلها الى الغير .

واللااحساس الرواقي ، الذي كثيراً ما تناوله المؤلفون الشرقيون ، يطابق مطابقة تامة حالة الهدوء والاطمئنان الناتجة عن اعتماد هذه النوعية . وبما لا شك فيه ان التوصل اليها صعب ، والأخطار التي تعرضها لا يجوز ان تنكر خطورتها . واللااحساس لا قيمة له ، إلا في حدود انفتاحه على الشعور بالشفقة . وإلا فان اللامبالاة تحبّر ؛ فيأخذ قلب الانسان

صلابة الحجر . وهكذا يمسي مستحيل المثال ، محتجزاً في قفص أضيق من القفص الذي تركه سابقاً . والإحساس المرتجف يفتح مجال التدهور ، ويشحن الانسان دينامياً ويجمعه قادراً على المواصلة . على كل حال ، انه عبء ثقيل لأنه يعرض حامله للساس أو الجرح .

فالتقشقات - المؤدية الى اللااحساس - تزيد المرارة والكبد قدرة على حسن القيام بوظيفتيها ، وهذا المزيد نافع جداً في تسهيل تجنب الحدة والغضب ، ولكن الرياضة الروحية ليست حكماً عاملاً اتزان جسدي وذهني . وإذا كان الرهبان يعمرون طويلاً ، فذلك لأنهم بعيدون عن فوائض التغذية ومزالسق الأخلاق ، غير أنهم ، مع هذا ، ليسوا في مأمن مما يطرأ على أجسامهم من خلل أو تهيج أو يعتريها من ضعف في القوى الجسدية والعقلية . وفي الجماعات المشتركة التعايش ، يصبح المرض ، بسهولة ، الملجأ أو منفذ الهرب ، بالنسبة الى الأفراد الخاضعين لقساوة شديدة . واتسراح الانسان ، غالباً ، رهن لقدرته على ان يحب أو يكون محبوباً . ولو ان الله يكفي ، لبطل ان تكون هناك مسألة ، ولكن الله قلما يكفي ، وعلى الأقل ، كان بالامكان ان نحكم اعتماداً على بعض المظاهر لو أننا نملك معرفة أكثر بالانسان . وفي حالة اختيارك ألا تكون

محبوباً بصورة شخصية ، وان تعيش نكرة ، فان هذا يؤلف  
حصيلة نادرة إذا قدر لها ان تتحقق حسيّاً : هذا موضع شك  
كبير . ومن وجهة النظر هذه ، فان كل جماعة مشتركة العيش  
تعرض لخطر تشجيعها الفرّيسية والرّناء ؛ والاهتمام بمظاهر  
التقوى فنح ، وأثانية ، ووردية .

ثم ان التحرر يمكن الحصول عليه بتعود التأمل وبتتركز  
الجهد مضموناً أكثر من أن نأمل ذلك بريضة سلبية . ولكن  
تعود التأمل والرياضة الروحية ، احدهما يقوّي الآخر للوصول  
الى انعدام الضروريات أو الفراغ ، الذي هو شرط لا بد منه  
للتعمة والالهام ، والحدس . والامتلاء تتطلب الفراغ ، فهما  
الحالتان اللتان تتداخلان إجبارياً . والفراغ لا يفاجيء تبعاً  
لجهد طويل أو قصير . وانما يحصل دون إشعار بصورة مخالفة  
القانون والأخلاق . فبينما أنت تحسّ غيابه اذا به يحضر فجأة .  
والفراغ يشبه موتاً ، أو على الأقل دنوّه ، فهو بحكم الضرورة  
"يحسّ" كذلك ؛ والانسان الذي هو مكانه يثق بسكوت ،  
بإبتعاد عن كل ما يشتت الذات : فهو مكان شاعر . والفراغ  
والامتلاء يتواصلان كالتهنّد والتنفس ، فيؤلفان كلاً غير  
منظور .

وفي كتاب « سحابة الجهل » ينصح ، المؤلف المجهول ،



باختيار فراغ جزئي قائم بين الفارغ والملاّن . أما لصديق له متردد بين السكوت والمحادثة ، وبين الصيام والغذاء ، فقد أشار بطريقة أصعب مراساً ، لأنها تتطلب كثيراً من الدقة ، إذ قال : ضع أحد الاثنتين في يد والآخر في اليد الأخرى ، وانتق شيئاً ما مخبوءاً بين الاثنتين وعندما تحصل عليه يتيح لك ، في كل حرية فكر ، أن تترك بأي من الاثنتين ، كما يحلو لك ودون أن تتحمل أية ملامة . أنت تسأل نفسك هذا الخبوء هناك ، وهوذا أنا أجيبك : هو الله - الله الذي لأجله يجب أن تسكت ان كان سكوتك واجباً ؛ ولأجله يجب أن تتكلم ان كان كلامك واجباً ؛ ولأجله يجب أن تصوم ان كان الصوم واجباً ، وأن تأكل ان كان الأكل واجباً - لأن السكوت ليس الله والكلمة ليست الله ... وكذلك الحال بالنسبة الى كل هذه الأزواج من المتناقضات . فالله يختبئ بين الاثنتين ، وليس في استطاعة أي عمل من صنع الروح أن يجده ، ولكن محبة القلب وحدها تستطيع ذلك .

هذا النص يبرز الحرية التي توصل إليها ميزة مسلكية . والذي يقلدها لا يعلق أهمية أصيلة القدم على الامكانيات التي تقدم ذاتها له ؛ والقيمة الأصيلة الأساسية ليست مربوطة بالهدف ، لأنها قائمة أبعد منه . فهي من متعلقات البيئة . هذه هي « ميزة

البيئة ، التي اقترح الأخذ بها كثير من المذاهب البوذية . انها  
ميزة صعب بلوغها لأنها تتطلب يقظة دائمة ، وضميراً لا يفتش  
عن اطمئانه بانتقائه الأصعب ؛ فالنجرد وحده ، منفذ الانفصال ،  
يعطي حرية الاختيار هذه .

وإذا استمرت في تمييزي بين الأنا والغير ، أترجح بين  
تحيدين ، مقررأ أن آخذ أو أن أرفض ، بوعي وادراك .  
وبتحرري من الازدواجية ، منفذ أحكام القيمة ، وبتفرغي من  
كل مفارقة تمييزية ، أصبح شبيهاً بعارضة ميزان متوقفة تماماً عن  
التحرك . وهكذا يكون الفراغ تخلصاً ، فهو يجعل الترجيح  
وليد الثقل .

ويذهب التطهير أيضاً الى أبعد ، فهو يعني مبدأ الألوهة  
ذاته . وأكثر الناس وثليون ، وعلى الأخص مع الأديان . وان  
ديناً خاصاً لا يستطيع أن يحيا إلا في الحرية ، والذين يعتقدون  
ديناً هم ، في الغالب ، يفتشون عن سلطة ، وعن تنظيم يعلمهم  
كيف يسلكون ، وما ينبغي أن يفكروا فيه وأن يؤمنوا به .  
وما يعول عليه بقيمة هو الإيمان الدينامي وحده . فإذا كان  
الإيمان سطحياً وليس داخلياً ، فإنه يبدو مجرداً من أي معنى .  
وصفة الألوهة لا تتجلى إلا في حالة يخرج فيها الانسان من  
خبره ، ويستنقظ . فماذا يكتشف ؟

يجيب ايكهارت عن هذا السؤال ، مبدياً كيف ان الله يعمل في النفس ، عندما تتجاوز الصور التي تلتقطها الحواس الخارجية ، إذ قال : ماذا يعمل الله إذن ... في عمق النفس وجوهرها ؟ لست في حالة تمكني من معرفة هذا ، لأن قوى النفس لا تستطيع أن تلتقط إلا في الصور ... وهذا هو مقرها الخفي ... والجهل يجتذب هذه القوى نحو شيء عجيب ، ثم يدفعها الى ملاحظة الصور ! لأن النفس تشعر جيداً أن هذا كائن ، ولكنها لا تعلم ... ما هو هذا .

عدم معرفة ما هو هذا الكائن ، ولكن معرفة أنه كائن . هذا هو الجواب عن مسألة الله . وكل الباقي ثمرة . ولذا استطاع نيقولا بيردييف أن يكتب : « الله لا يشبه في شيء الفكرة التي نكوّنها عنه . في أي شيء البتة » . وفي ما يختص بالله ، كل شيء قائم في التجربة التي نستطيعها في شأنه . وفي هذا الصدد قال بطرس في ( أعمال بطرس ) عندما ظهر المسيح : « لقد رأيته كما كنت قادراً أن أبصره » . فعلى هذه القدرة تتوقف معرفة الانسان لله ويتوقف الاتحاد به . وسواء أدعى الله أم لا ، فإنه حاضر . هذه العبارة الحجرية الثمينة ، محفورة في حجر فوق باب المدخل الى منزل يونغ في كوزناخت ( في سويسرا ) ، وانها

لذات مغزى . وسواءً ، أيضاً ، التوجه الى الله أم نسيانه ،  
والاعتراف به أم لا ، فهو حاضر أبداً .

وهوذا نحن نورد ما علمتم به بونغ ، في زمن تحدث فيه  
بعض اللاهوتيين عن موت الله ، وأثاروا جدالاً في صدد مسألة  
المسيح ، قال : المسيحية لم تخترق النفس البشرية حتى أعماقها ،  
فيجب أن نكتشفها مجدداً . كما يجب أن نجري تجربة عليها ،  
وأن نتفهمها ، وأن نحياها حقيقة . ففي هذه الأبعاد ، المعنى  
العميق لرسالة المسيح ، الإله الذي صار إنساناً . فالقضية ليست  
قائمة في حدث جرى منذ ما يقارب الألفي سنة ، وإنما في حدث  
جارٍ بصورة مستمرة في حياتنا الداخلية الشخصية ... لأن  
ما يفكر فيه العالم حول التجربة الدينية لا يقيم الدليل على صحة  
ممارستها واقع حياة . فالمسيحية تملك كنزاً لا يقدر بثمن ، كما  
تملك يلبوع حياة وجمال ، أعطى معنى لوجودها .

وبعد أن أشار الى التجربة الدينية ، انتقل الى الكنيسة  
المسيحية ، فأردف قائلاً : ماذا تحمل الكنيسة الى من لا يؤمنون ،  
والى من لم يجدوا السلام في قريها ؟ لكي تحميمهم من هم بينهم من  
ناس ذوي قيمة ، وناس آخرين موهوبين جداً . لأن هؤلاء وأولئك  
لم يرفضوا الحقيقة التقليدية عن ضعف ، ولا عن جبن ... ولكن

بحكم ضرورة داخلية ، وبفعل حاجتهم الى المحافظة على احترام نفوسهم والاخلاص لها ١ .

ولقد بعدنا ، مع هذا الموضوع ، عن فكرة فرويد ، وهو يؤكد ان المسألة الدينية ناتجة عن كبت . فليس ، إذا ، خارجاً عن الموضوع ، اذا تعرضنا لمسألة الله ومسألة الدين في دراسة مخصصة لمعرفة النفس ، لأنها ، وان كانتا مسألتين لا تخالطان هذه الدراسة ، فإنها تتجاوبان وأحد غرائز الانسان ، حق عندما يفقد معناها . ولقد أتاح تبخر مبادئ الاعتقاد بالله وبالاديان ، ولا سيما الدين المسيحي ، للانسان الحديث عودة الى علاقة بالتأله المتحرر من ثقل تاريخه .

### التغير والتمييز

باكتشاف الذات ، ووضيغ الانسان العارف في علاقة مع الامكانيات المنتمية الى المثل الأعلى الأصيل ، من هنا جاءت التعديلات التي فرضتها النموذجية المثل ، يعني المعالجات النفسية الواعية واللاواعية . وقد درس يونغ ، في المؤلف الذي خصه

---

(١) في سيكولوجيا وتصنيع المعادن ( باريس ، ١٩٧٠ ، ص ١٥ )  
كتب : « الحضارة المسيحية ... ليست سوى ضلال خارجي ؛ والانسان الداخلي بقي على حاله ... لم يتغير » .

بـ « النماذج السيكولوجية » ، خصائص الوظائف السيكولوجية الأساسية في مواقفها بين متجه الى العالم الخارجي وبين مأخوذ بالأصغاء الى ذاته . وهكذا تغدو أمثال هذه الاعتبارات ذات أهمية أساسية بالنسبة الى موضوعنا ، اذا كانت مكرّساً للسيكولوجيا . ويبدو هاماً ان نحفظ مواقف النفس ومواقف الذات أثناء تهذيب الشخصية ، لكي نعرف ، بصورة أفضل ، العلاقات بين الأنا والذات . ولندكر أولاً أن عُرف يونغ يقضي بما يلي : النموذج الأمثل شكل رمزي يدخل في عمل وظيفي حيث تنعدم المفاهيم الواعية ، أو حيث تعترض وجودها أسباب خارجية أو داخلية ، فتجعله غير ممكن .

أما في ما يتعلق بالنفس والذات فإن يونغ يوجه النظر اليها كمرَكبين مستقلين إذا كانا لا يقومان بوظائف ذات علاقة بين الوعي واللاوعي ، وهذا الغير المطمئن يواجبه مثل « مجمل معالجات طبيعية تقع في ما وراء الصعيد الشخصي الانساني » . فالتغلب على النفس ، بوصفه مركباً مستقلاً بذاته ، هو في ان تُسند اليه وظيفة لها علاقة بين الوعي واللاوعي . وفي حال حدوث هذه الحركة ، فالأنا تقوم بتصريف شؤونها ، فتبادر الى تعديل علاقاتها بالجماعة التي تعاشها عيشاً مشتركاً . ويقول يونغ : ان النفس تفقد ، هكذا ، سلطتها في الجاذبية التي لا

تقاوم وفي قدرتها على عجب الأمور ، فلا تبقى ، بعد ذلك ،  
« النفس المسيطرة » و « النفس السيدة » ، الأمرة ؛ بل تصبح  
وظيفة سيكولوجية ذات طبيعة بدئية .

السيطرة على النفس هي القدرة على انتزاع طاقتها النفسية ،  
وعندئذ تأخذ الأنا الواعية في الاستغناء بهذه القدرة .

ويقول يونغ : الأنا الواعية تمر بخطر ، هو خطر صيرورتها  
شخصية موهوبة تتمتع بطاقة نفسية . لذلك ، فركب الشخصية  
الموهوبة ، هو إحدى الميزات المسيطرة على اللاوعي الجماعي ،  
والنموذج الأمثل يعرفه الإنسان القوي ، إذ تمثل خلال كل  
حياة الإنسانية في أشكال متعددة منها : البطل ، والرئيس ،  
والساحر ، والطبيب ، والقديس ، والسلطان الذي يحكم الناس  
والأفكار ، والملك ، وصديق الله .

والموهوب ، هو هذا الموجه الطاقة الدينامية التي تكلم عليها  
يونغ ، فقال : إذا اغتصبت الأنا هذه الطاقة فإن المصاعب  
ستعرضها بصورة مفاجئة ، وبقدر ما تكون الأنا موفورة  
النصيب من هذه الطاقة تكون المصاعب عسيرة ، فلا تستطيع  
الأنا أن تكون مفهومة لدى الغير ومقبولة عنده . ومن هنا  
تبدو الحاجة ماسة إلى اللجوء إلى عنصر من الشخصية لا يحدد ،  
فيه اتصال الأضداد وتتلاقى المتناقضات ، فلا يعرف كيف

يحدد الاصطدام بين الخصائص الشخصية والمألوفات المجتمعية طريقته الى هذا الموهوب .

هذا الوسط الشخصي أطلق عليه يونغ اسم «الذات» ، وقد امتحنه فقال : يجب أن يعتبر ذهنياً ك مفهوم سيكولوجي ، و كبنية لا يمكن تعريفها ، في وقت واحد ، فهو ، إذا ، مُعطى يتجاوز فهمنا .

بين الأنا والذات مسافة شاسعة . وفي هذا الصدد ، قال يونغ : « بين الذات والأنا مسافة مثل ما بين الشمس والأرض » . وهذه الذات يواجهها البعض كأنها إلهية ، ومن هنا جاءت فكرة «الله فينا» ؛ ويواجهها البعض الآخر باعتبار انها مجهزة بمحتويات مستقلة . والذات يمكن أن تعني ما يماثل تعويضاً عن الاصطدام بين الخصائص الشخصية والمألوفات المجتمعية ، نجدده في الاشتباك الواقع بين العالم الداخلي والعالم الخارجي ... والذي كأنه غاية الحياة ، لأنه التعبير الأكمل عن هذه الاجراءات التنفيذية القدرية التي نسميها فرداً .

وقد بينت يونغ كيف ان الانسان المولود جديداً هو مدبر نفسه ، وهو الذي يلد ذاته الجديدة . والولد ، ثمرة حمل عذري ؛ يدل على اللاوعي الذي لا يفترض مساهمة أب بشري ، هذا الأب الذي يرمز إليه الوعي . وهكذا يلد الإله ابناً معادلاً له ،



وهذا يعني ، في رأي يونغ ، وفي لغة علم النفس ، ان نموذجاً مركزياً أمثل ، في صورة عن الإله ، قد تجدد ( وُلد ثانية ) وتجسد في الوعي بصورة ملحوظة .

ويعضى يونغ قائلاً : الأم تتعين في النفس العذراء ، النقية من كل دنس ، لأنها لم تلتفت الى العالم الخارجي ، فلم يتمكن من إفسادها . انها التفتت الى « الشمس الداخلية » ، « صورة الإله » وبتعبير آخر التفتت نحو النموذج الأمثل لكلية ما هو خارج عملنا وفكرنا .

أما كيف يمكن أن يستطيع الشخص تحقيق ذاته فنورده هكذا : « الأنا لا تحتمل تعلم فلسفة تتناول الشخص . الأنا مطروحة بداهة كسألة ، على حد قول نيغولا بيردييف ، والشخص موضوع امتحان » ( تأملات في الوجود ، ص ١٠٥ )<sup>١</sup> . والمهمة التي على الأنا أن تقوم بها هي الوصول الى تحقيق الشخص ؛ ولهذا ، على حد قول جان لاکروا ، الفكر الانساني يميناً في الزمن ويسطر عليه ، في وقت واحد ، ولا يستطيع أن يرضى عن أي شيء زمني ، ولا يستطيع أن يتهرب ، مع ذلك ، من

---

(١) انظر في هذا الموضوع التأملية لنيغولا بيردييف مخصصة للشخص ، تأملية في الوجود .

مصيره ، الى مدى ما من الزمن ١ . وإذا كان الفرد ، فالشخص  
يحتمل التحقق حاصلًا على الصعيد الجسدي والروحي ، وهكذا  
استطاع ماكس شيار أن يحدد الشخص كإمكانية والوحدة في  
أفعالنا . وتحت وطأة التعديلات والتغيرات التي لا تقطع  
مفاجأتها ، توجد استمرارية مسببة عن الوحدة المكتسبة ،  
وهذه الاستمرارية وهذه الوحدة تبرزان الشخص . ويبقى  
الشخص مفقوداً ما بقي كيانه غير قائم ؛ وعندما يلاقي الانسان  
ذاته يتجلى شخصه المفرد ، ويظهر ككل مميز يملك وجوده  
الخاص ، ودعوته الخاصة .

هل الانسان الواعي ذاته ،

إنسان متفوق ؟

هل يمكن أن نطلق على الانسان الذي حقق معرفة ذاته  
تسمية إنسان متفوق ؟ الجواب عن هذا السؤال دقيق التفاوت  
في المعنى . ففي الواقع ، الانسان المحقق يستجيب لشرطه  
الانساني ، فهو ليس إنساناً متفوقاً ، ولكنه ، بكل بساطة ،  
إنسان . ومع ذلك ، وبالنسبة الى آخر غير متحرر ، يستطيع  
أن يتلبس وجه الانسان المتفوق .

---

(١) الماركسية ، والوجودية ، والشخصية ، ص ٧٢ .

والانسان العارف، بوصفه مشاركا شعورياً الانسان الكوني،  
ومجتازاً حدود عالم مغلوق، يبدو مجرداً من القربى، مثلاً،  
زرادشت أو فاوست. وان نحن استعرضنا الرومانطيقية الثانية  
مع نيرفال، وبودلير، وريمبو، ولوتريامون، فليس هناك أية  
علاقة. ولكن يمكن أن نجد بعض نقاط تماس مع بلايك أو  
نوفالس، لأن المدى الصوفي والشعري يملك ثقلاً نوعياً نستطيع  
أن نجد فيه كل شيء. ولقد أكد نيتشه، بأحسن مما فعل هيجل،  
وجود الانسان المتفوق، إنساناً متفوقاً جياً لأن الله مات،  
محطماً القيم، محرقاً ذاته في لهيبه الخاص، حاملاً في ذاته الفوضى  
« لارتكابه جريمة ولادة نجم راقص ». وكثيراً ما يأخذ هذا  
الانسان المتفوق ملامح حكيم: انه بكلية نزوع الى تجليه الخاص  
في هيئة جديدة، هذا التجلي الذي كان سبباً في خلق هذا  
الكائن المتفوق الذي أخرجه زرادشت، أو الذي يشبه تطور  
الفراشة الذي تكلم عليه بو. والفلسفة والشعر يجعلان هذه  
الأفعال التطورية أكثر بروزاً في أشكالها. والانسان العارف  
المقيم علاقة مع ذاته يصل، أيضاً، الى امتلاك عناصر الأرض  
امتلاكاً مباشراً لأنه ذو صلة شعورية بهذه العناصر. ولكنه،  
على كل حال، لا يفندي أية رغبة امتلاك، لأنه ليس ميتالاً الى  
التحصيل بل الى الكينونة. هل نجد هذه الملامح عند

بروميثيوس<sup>١</sup> ؟ في هذا الصدد يجب أن نتوجه بالسؤال الى بعض العلماء الانسانيين . ففي عرف مارسيل فيسين ، الانسان هو الصيغة الوسيطة بين الأرض والسماء . وهو - كما يوجز تعريفه بيك دي لاميراندول - سماوي وأرضي ، مبسط ومعقد . وهكذا يكون موقع الانسان على جبهات عالين ، فهو يمثل المنطق الاستطراذي ، أي من العلة الى المعلول ؛ إذا ، فهو شبيه بالله . ويوجز فيسين ، قائلا : إذا أمكن القول ان الانسان يحكم على الأرض ويتسلط على المادة ، فإنه يبقى غارقاً في التعاسة ، لأنه ، على الرغم من سلطته ، لا يكفيه شيء من الأرضيات . وبروميثيوس رمز هذا البؤس النفسي ، وهو مستمر الى الصخرة . وتابع بروميثيوس صعوده الى قمة التأمل ، بعد أن علّته النار السماوية ، لينظر في حل المسائل التي لا يحلها العقل ، دون أن تأخذ النفس انطلاقها في مدى الفضاءات الصاحية في وراء العالم .

إن قصة بروميثيوس الميثولوجية ترمز ، في رأي فيسين ، الى

(١) إله العبقرية ومبدع الحضارة الانسانية الأولى . صنع الانسان من طين الأرض واقتبس له من نار السماء . فعاقبه زوس إله الآلهة عند اليونان ، وأمر هيغايستوس ، إله النار ، أن يربطه الى صخرة . وقد خلّصه من وثاقه هيراقليس بينما كان نسر ينقض عليه ليمزق كبده . ( المترجم )

الفكر البشري باحثاً عن معرفة ذاته ، ومحاولاً التفات من ظرفه الانساني . ويبدو هذا النهج ذا أصل أفلوطيني . وهكذا فإن بروميثيوس يزاوج ما بين صورة البطل وصورة الانسان المحكوم بالبحث المأسوي عن ذاته . ويمكن أن يكون له وجه آخر ، عند النظر في أسطورته ، وجه المبدع بعيد الخلق ، وفي إعادته يوجه في طريق الصواب . وهذا شارل بوفيل ، أحد تلاميذ ليفيفر ديتابل ، يعلن هذا الموضوع قائلاً ان الفكر الانساني بعيد المادة الى كمالها الأول ، وهكذا بروميثيوس يرمز الى الحكيم الذي من «إنسان طبيعي يصير الى إنسان سماوي» . وعلى هذا الأساس ، فإن بروميثيوس يتخذ ، في التاريخ ، وجوهاً مختلفة تبعاً لمراحل الزمان ، فمرة يمثل الانسان ، وأخرى يمثل المسيح ، وثالثة يمثل البطل ، أو يترامى مرتفعاً بقوة ليجابه الإله الذي زعم أنه قيّده .

وهناك موضوع آخر ، هو موضوع التآليه . والانسان ، وقد اطمأن الى ذاته ، هل أصبح إلهاً ؟ نحن هنا لا نتكلم على قضية التآليه في الفكر اليهودي المسيحي ، وسنعود إليه في ما بعد ؛ وسنقتصر على التذكير ببعض ملاحظات عامة على رمزية التآليه التي جعل منها الشعر ، والسحر ، والدين نقطة الانطلاق ، والدرجة التي يستعلي بها الانسان لينطلق نحو فوقية من فوقيات

الزمان يحن إليها . وكثيراً ما تختلط ميزات الرؤى التلميحية  
والتعاليم المتناولة مصير الانسان وحسابه في وراء القبر، وأحياناً  
تفسد ملامح الهيئة المتبدلة قبل موت الجسم فيزيائياً . وهنا  
يجدر بنا أن نسأل القصص الميثولوجية التي تتناول الحضارات  
القديمة، كالفكرة التي نشأت على أسامها قصة أوزيريس المصرية،  
وقصة براهما الصينية، وغيرها كالهندوسية أو التيبيرية . وفي  
عرف أتباع الأوبانيشاد أن التآليه الميثولوجي هو مصدر النور  
الذي يرسله الى البشر الذين يفتحون له . والحكيم الذي توصل  
الى الوحدة العليا يرى « الكائن الذهبي اللون » ، نفسه ذهباً .  
والشرارة الداخلية التي كانت مغطاة بحجاب المظاهر قد  
استيقظت في قلبه ؛ وما هي تلتع ، بعد أن تخلصت ،  
كشعة . وهذا التآليه الانساني نفسه نجده عند الطاويين ، بعد  
أن أخذ الانسان في التماس بذاته ، فالحكيم عندهم متحد  
ملاوتسو . ولغة التحدث عن العجائب اليونانية لا تختلف عما  
قدمنا ، فالغاية من « العجائب تأمين تحقيق وهميات الانسان  
عن طريق الطقوس الدينية » . و « النسخ الثانية » تمثل الاحتفالات  
الدينية التي بواسطتها يصير الانسان كاملاً ، ومدفوعاً بشكل  
ما، نحو كاله الخاص . والاحتفالات السيامية غايتها إذكاء حيوية  
الذات ، وإحداث تماس بها . فكل احتفال سيامي يحدث

تطوراً والانسان الموضوع يصير أهلاً لتلقي الإيحاء بالعجائب .  
وما كان خافياً ألقى عليه ضوء : فيترك الانسان العارف ليلته  
ويدخل في ضوء النهار .

هذا الموضوع ، على الرغم من إيجازه ، غاية أن يظهر أن  
كل تحقيق ذات ينتهي الى تآله ، فمعرفة الذات ليست شيئاً آخر  
غير ولادة ، وتنبه النواة الإلهية في الانسان ، نواة توصف  
بالإلهية لأن كل كلى القدرة كنز من نور . وأعجوبة النور ، في  
هذا الصدد من البحث ، تفشتى شأنها على تفتح الفكرة الايرانية  
كما كشف عن هذا التفشي هنري كوربان بصورة رائعة ، خلال  
درسه « سيكولوجيا إنسان النور في الصوفية الايرانية » .  
وإنسان النور ليس إنساناً متفوقاً ، ولكنه يستجيب لشرط  
إنساني إلهي ؛ فهو عالم صغير وإله صغير . وهذا الموضوع المزدوج  
سنجده معروضاً في التراث الفكري الأسطوري اليهودي -  
المسيحي .

### الانسان إله مصغر

هل الانسان إله صغير ؟ وهل يمكن اعتباره متأهلاً ؟  
فلنتذكر معاً النص المأثور عن أبيكتيت : « لماذا تتجاهل ،  
إذن ، الأصل النبيل ؟ ألا تعرف من أين جئت ؟ .. عندما

تحدث الى إنسان ما ، وعندما تعذره ، وعندما تناقش ، ألا تعلم انك عند هذا كله تغذي إهلك في داخلك ؟ إنك تقارس إلهاً . إلهاً تحمله الى كل مكان ، وأنت لا تعلم شيئاً عنه ، أيها التاعس ! وهل تعتقد أنني اتحدث هنا عن إله من فضة أو ذهب هو في خارجك؟ الإله الذي أتكلم عليه، أنت تحمله في داخلك ، ( محادثات ) .

الصلة التي تخلق العلاقات بين الانسان والألوهة وتعرزها بالسلطة ، ترتكز على قرى قائمة بين الواحد والآخر ؛ وهذه القرى متأدية عن الصورة الإلهية التي يحملها الانسان في إنسانه . ونجد هذه الصلة بين الانسان والألوهة موصوفة في ما خلف أفلاطون من فلسفة ؛ والصورة هنا نوع من التراثي في نظام التأليه . وقد ورد كثيراً شرح هذه المسألة في الفكر اليوناني . والصورة تتميز عن المشابهة ، فهي قوة بالنسبة الى هذه المشابهة ؛ فنستطيع مقارنتها بفرخ نبات ، يظل أميناً لقوانين إفراخه ، وهو يكتسب مشابهة كاملة لطبيعته الخاصة . وهكذا فإن العبور من الصورة الى المشابهة يبدو كتقليد للألوهة . وهذه الطريق تحمل ، في قاعدتها ، مساهمة قائمة بين الانسان والتأله . ولأفلاطون ، في هذا الصدد ، تفرّد في تجاوز الاعتدال ، فالصورة عنده ، تظهر حاملة علاقات بين الانسان والله .



وقد تناول سفر التكوين ( ١ ، ٢٧ ) هذا الموضوع في قصة الخلق ، فالبحر الى أن الانسان مخلوق على صورة الله ومثاله . ويروي سفر التكوين أيضاً ان الله خلق الانسان من طين التراب ( ٢ ، ٧ ) . ويجب أن نلاحظ مع ورنر وولف<sup>١</sup> ان العبرانيين كانوا يستعملون كلمة « الأرض » ، وكلمة « تراب » شرطاً أن نضمّن هذه الكلمة قوى منتجة . ومن جهة أخرى ، أعطيت هذه الكلمة مشاركة اللون الأحمر ، لون النار ، الذي كان مقدراً وجوده في طبقات الأرض العميقة . وهكذا فقد ظهر الانسان والأرض من طبيعة تارية . ولنلاحظ أيضاً ، أن الله والانسان كثيراً ما يُشبهان بالنار . والحرارة ليست موجودة في دم الانسان ، وفي نفحته فقط ، ولكنها موجودة أيضاً في قلبه . وصاحب المزامير يقول : قلبي يحترق في داخلي . . . وثار داخلية تلتهمني ( المزمور ٢٩ ، ٣ - ٤ ) . والنص التوراتي المدعو « كهف الكنوز أو عهد آدم » وهو نص لا تعترف به الكنائس المسيحية ، يروي خلق الانسان في هذه العبادات : « الله بيديه كوّن آدم على صورته ومثاله . وعندما رأى الملائكة طلعتة العجيبة ، أخذوا بيها وجهه ، لأنهم كانوا يرونه مشعاً

(١) انظر « تبديل مفاهيم التوراة » ، نيويورك ، ١٩٥١ .

كالشمس . وكان نور عينيه كنور الشمس ، ونور جسده كلعنان  
البلثور .

وفي رأي ج . ليفي ان غبار التراب يعني غبار الذهب ، ومن  
هذا الغبار اشتقت التسميتان الدالتان على منجم الذهب ، وعلى  
الحجر الكريم . والغبار الذهبي هو الطاقة الخالقة ، والزرع  
الإلهي ؛ وهو المسحوق الذهبي الذي ألمح أيوب إليه ، عندما  
كان يتكلم على الأرض التي يخرج منها القمح ، وكانت يظهرها  
مقاربة في أحشائها بفعل النار فيها ، في حين ان ح تجارتها تحتوي  
على الزمرد وعلى غبار الذهب ( ٢٨ ، ٥ ) . ولكن آباء الكنيسة  
وشارحيهم ومترجميهم تمسكوا بتعبيري الصورة والمثال أكثر من  
تمسكهم بطين التراب ، مع ان هذه التعبيرات النارية ذات مغزى  
بالنسبة الى العلاقات التحديدية بين الله والانسان . وجدير بنا ،  
أن نذكر بأن أفلاطون ألمح الى المخلوقات الحية التي تملك في  
دمها وعروقها حرارة قوية ، التي هي فيها شبيهة بانبوع  
من النار .

إن هذه القصة التي تروي خلق الانسان من طين التراب ،  
وعلى صورة الله ومثاله ، تزاوجت بالنصوص البابلية القديمة ،  
التي تتناول خلق الانسان الأول معجوناً بالدم الإلهي . والمهم  
بالنسبة إلينا هو أن نحفظ هذه التنبؤة عن الصورة الإلهية التي

هي ليست، قساعة، خلق الانسان، فحسب، ولكنها قاعدة كل تطوره. لأن سفر التكوين هذا لا يعتبر ظرفاً في الزمان، بل هو مستمر. لذلك فالانسان ليس صورة كاملة عن الله، فللمسيح وحده، يكون مذاقه للصورة الكاملة هذه، على حد ما يقول به الابراهم المسيحي كما توسع في مدرسته آباء الكنيسة ومؤلفو القرون الوسطى.

وفي صدد الكلام على الصورة، يجدر بنا أن نعطي بمض أمثلة وجيزة من مختلف التفسيرات المقترحة للأخذ بها، والمنحى الذي اتجهوا فيون، وجاء من نقب فيه بعده، من مفسرين لفلسفته وأتباع لها، يصلح أن يكون أول الأمثلة. قال فيون ١: لا يجوز أن تمثل هذه المشابهة في شكل جسدي؛ لأن الله ليس في شكل بشري، والجسم البشري لا يشبه الله. لا، فالتشبيه هنا مستعمل بالنسبة إلى الفكر، عنصر النفس المسيطر؛ لأن الفكر صيغ على نموذج فكر غريد، الفكر الكوني المتخذ كنموذج أمثل ٢...

(١) الملقب باليهودي، فيلسوف يوناني، من أصل يهودي (١٣ ق. م إلى ٥٠ م). وضع فلسفته في خليط من الافلاطونية والتوراة، لم تمر دون تأثير فاعل في الافلاطونية الحديثة. وفي الأدب المسيحي. (الترجم)

(٢) «بحث في خلق العالم»، ص ٦٩.

أما أوريجين فقد استوحى الوسيط الاقلاطوني في شرحه الصورة . وقد ألحّ بشكل خاص على المبدأ الذي أشرنا إليه منوهين بأن المسيح وحده هو الصورة الحقيقية ، والانسان هو صورة الصورة<sup>١</sup> . والمسيح هو النموذج الذي استخدم في خلق الانسان . والآباء اليونان واللاتين يحفظون عن أوريجين هذه العبارة المختزلة التي أصبحت كلاسيكية : « لم يكن القول ان الله صنع الانسان على صورته ومثاله ، بل القول الذي كان هو أن الله صنعه على صورة الله... وصورة الله هذه لا يمكن أن تكون غير مخلصنا »<sup>٢</sup> .

وقد قال كليمان الاسكندري : « الكلمة الإلهية هي صورة الله ، ونحن البشر صورة الصورة » .

وفي رأي غريغوريوس دي نيس ، النفس هي صورة هذه « الطبيعة » التي تتجاوز كل فهم ، وانعكاس هذا الجمال الذي لا يعرف أي انتقاص من قدره ، وطابع الألوهة اللوثنية ، وخيمة الحياة ، ومرآة النور الحقيقي ( نشيد الأنشاد ) . وفي رأي أمبرواز ان معرفة الذات هي تعرف الانسان الصورة

---

(١) انظر في هذه المسألة ، مسألة الصورة ، هنري كروزيل ، لاهوتية صورة الله عند أوريجين ، باريس ، ١٩٥٥ .  
(٢) تعليقات دينية مبسطة على سفر التكوين ، ١ .

والمشابهة الإلهية في ذاته ( المزامير ، ١١٨ ، إصحاح ٢ ) وفي كتاب « يوحنا الانجيلي » قال أوغسطينس : الانسان ليس في صورته الجسدية شبيهاً بالله ، بل في فكره صنع صورة عن الله . على وجه التعميم ؛ يمكن القول ان آباء الكنيسة ، والمؤلفين في القرون الوسطى ، عادوا الى اعتماد التفسير اليوناني الأصلي ، وأجمعوا على الكلام على الصورة والمشابهة ، مرتكزين على مساهمة الانسان في الألوهة . وعندما كانت تختلف تفسيراتهم ، فحول انتقاء مكان الصورة كان يقع الاختلاف . وقد كانت تعترضهم دائماً صعوبة يجب أن يحسبوا لها حساباً هي الخطيئة الأصلية ؛ فيبدو ضياع الغفران ، وقد كوّن نوعاً من القطيعة ، في نظرهم . وفي حالة الأخذ بوجود إنسان قبل آدم ، تبدو المشابهة تامة ، ولكن بعد الخطيئة الأصلية ، تشوّه شكل هذه الصورة . ولقد حفظ الانسان الصورة ، مدة بقائها قوة فاعلة ، ولكنه أضاع المشابهة ، أو بتعبير آخر ، أضاع إخراج هذه القوة الفاعلة الى حقيقة الوجود . والمهم ، إذاً ، أن نجد ثانية هذه القوة الفاعلة .

وما يجب أن نحفظه هو ان الانسان ملك المشابهة وأضاعها ، وهذا ما نجد له مماثلاً عند أفلاطون . والواجب استعادة هذه الضائفة . والجسم ، في نظر اليونان ، بمثابة سجن يعيق النفس

عن الاستجابة الى شرطها الأول . والآنخذ بالتقاليد المسيحية  
يجد أن الخطيئة الأصلية جاءت سبباً لهذا الضياع في الاستجابة  
الى العقل : وعلى هذا الأساس قال برنارد دي كلير في عبارته التي  
تصلح قاعدة أولية : لقد أصبحت النفس حذاء ، وقال لوثر  
متكلماً على الصورة : إنها « جرباء » . والروح ، في نظر اليونان  
كما في نظر المسيحيين ، عليها أن تذكر حالة أصيلة نسبتها  
موقتاً . أما مكان وجود هذه الصورة في الانسان ، فقد اختلف  
فيه اختلافاً عظيماً ، فأغوستينس يضعها في الإرادة ، وبيرنار في  
الفكر ، وغيتوم دي سان - تيارى في الذاكرة .

وقد تناولت التقاليد المسيحية مبدأ الصورة هذا فتناقضته  
خلال اجتيازها المصور ، وما ان بلغ عصرنا الحاضر حتى  
أمسى لا يعبا به كثيراً ، فكأنه ينتسب الى ماضٍ مجرد من  
المعنى . فلم يبق غير عدد قليل من الفلاسفة واللاهوتيين يأخذونه  
يعين الاعتبار . وهكذا فإن هينخر يحدد مفهوم الصورة  
المسيحي بفكرة ما هو خارج عملنا وفكرنا . . . والانسان في  
تجاوزه ذاته ، يعتبر أكثر من مخلوق عاقل .

وفي عرف نيقولا بيردييف ، الصورة الإلهية في الانسان  
تصلح قاعدة لعلم الانثروبولوجيا . ولكي يثبت رأيه يلجأ الى  
التقاليد اليهودية المسيحية . فالإلهي موجود في الانسان كعنصر

بنساء ، لأن الانسان - كالمسيح - يحتفل طبيعتين : الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية ، اللتين باتحادهما يخلقان الشخص . وذوبان الطبيعتين في الله وفي الانسان لا يترك مجالاً لعزل أحدهما عن الآخر .

ان صورة الشخص البشرية ليست صورة بشرية فحسب ، انها أيضاً صورة إلهية . وهنا تكمن كل الأشياء الصعبة التعديد وكل المعائب ذات الارتباط بالانسان . وأول هذه المعائب التي نتصدى لها أعجوبة « الانسان الموله » التي هي تناقض لا يطاله أي تعبير ينطوي على استدلال عقلي . والشخص ليس شخصاً بشرياً إلا بقدر ما هو ، في الوقت ذاته ، إنساني إلهي . والعنصر الإلهي في الشخص الانساني هو حرته واستقلاله بالنسبة الى العالم الفاني .

ولكن نفهم هذا النص ، يجب أن نذكر بأن المسيح يعتبر هنا : « إنساناً مطلقاً » ، وتجسده التاريخي لا يدشن بسده وجوده ، فهو كائن أزلي أبدي . وهنا نجد أيضاً صدى للتبشير بإنجيل يوحنا . ونستطيع أيضاً أن نعيد عبارة لبوهيم حيث يقول : « الله ليس شخصاً إلا في المسيح » .

إن تكوين الشخص اللانساني يخرج عن نطاق العالم الموضوعي ، فهو تبع للذاتية ويتلقى حيويته من الصورة الإلهية ،

ويتمثل ينبوع طاقته في مثل نشاط أصل النوعية . وبقدر ما يكون الانسان حراً ، وشخصاً ، وفاعلاً ، يقدر ما يبدو محققاً ذاته ، مبرراً وجوده ، يمتلك في الله ينابيعه الأبدية .

وهكذا ، ليس من مبدأ سببية ، ولا مبدأ تحديدية ، يستطيع أن يتدخل ، فكل المذاهب من الوحدة الوجودية ، الى وحدة الحقيقية ، الى الازدواجية القائمة بالعقلانية الإلهية ، كلها ، كما يلحّ نيقولا بيردييف ، غير قادرة على تفهم الأعجوبة الخارجة عن نطاق الحس والعمل .

وعظمة الانسان وجدارته ، هما في أن يكون شخصاً قادراً على النفوذ الى ما وراء الحس والعمل . والوحدة الوجودية الانسانية تنتج عن هذه الازدواجية الإلهية الانسانية ؛ فإن تحطمت ، فالانسان لا يستجيب بعد ذلك الى حقيقته .

ليس الانسان صادقاً في إنسانيته إلا بقدر ما في داخله من شبه بالله ؛ وهذا هو الإلهي في الانسان . وفي هذا يحصل التناقض المميز في العلاقات بين ما هو إلهي وما هو إنساني . ولكي يكون الانسان مكتمل الانسانية ، يجب أن يشبه الله . ولكي تكون له صورة بشرية ، يجب أن تكون له صورة إلهية . وإنسان كهذا هو قليل الانسانية ، حتى يمكن القول انه ليس إنسانياً . لأن الانساني في الانسان هو شيء من الله وليس من



الانسان . فانه هو المطالب بأن يكون الانسان إنسانياً .  
ان ألوهة الانسان هي ينبوع حرية ، وبالحرية ، كما رأينا ،  
يشبه الانسان الله ؛ وهذه المشابهة ، على حد قول بيردييف ،  
هي واجب نحو الله أكثر منها حقاً نحاول استرداده .  
وإذا كان موضوع الصورة الإلهية كثير التساؤل بالدرس  
والشرح ، فإنه من الثابت أيضاً أن التفسير الذي يعطيه نيقولا  
بيردييف ليس مألوف العرض في الفكر الغربي المسيحي الذي  
يميل دائماً ، كما نعلم ، الى الإلحاح على مظهر الخطيئة في الانسان ؛  
والمؤلفات الروحية لا هم لأصحابها إلا التأكيد على هذه الناحية  
من الانسان . وان نحن بحثنا عن أن نقيم ، في هذا الموضوع ،  
مقابلة بين بيردييف ومؤلف استطاع أن يمارس تأثيراً على  
فكرته ، فمن المناسب أن نذكر غريغوريوس دي نيس ، الذي  
ينبني تفكيره في مفهوم الحرية على حضور الصورة الإلهية في  
الانسان . ولنذكر أيضاً غريغوريوس بالاماس ، الذي كانت في  
نظره حضور الصورة في الانسان قدراً سابقاً للنظر في  
حدود الله .

ان الصورة الإلهية تحضر في الانسان في شبه دعوة من الله ،  
وجواب الانسان يقتضي جعل المشابهة للصورة الإلهية في ازدياد  
مستمر . وهكذا ، فان الصورة تحدد انتداب الانسان للقيام

بمسؤوليته ؛ والمشاوية تعبت المهمة التي يجب ان يقوم بها نحو نفسه أثناء وجوده . فاذا انفصل الإنسان عن نفسه ، وإذا أفلتت منه ذاته ، فانه يشعر بوجوده فريسة للاضطراب وفقدان التجانس في انسانيته : وهكذا يضيع جوهره ووجهه الخاص .

يجب أن ندخل هنا كيار كيغارد وطريقته الوجودية ؛ وقد منحت لنا الفرصة وتحدثنا عنها .

لكي تتمكن من التقاط معنى هذه الصورة ، يجب ان تبينها في محفزها الخاص : فراها صورة حية متحركة . ويبقى أن نشير الى أن هذا المبدأ التقليدي يتعرض الى خطر إفلاته منا ، من حيث أهميته ومن حيث نتائجه . وفكرة يونغ ، في هذا الصدد ، ذات مغزى ، ويمكن التعبير عنها بلغة نستطيع اليوم فهمها . فهو يرى أن فكرة الله يمكن تشبيهها سيكولوجياً بنزوة غريزية عمياء حاضرة في الانسان ، مولودة معه . ويشدد يونغ على لبس العاطفي نحو هذه الفكرة ، التي نستطيع اعطاءها صيغة فاعلة . وهوذا يقول ، وقد صدر عن صعيد علم النفس ، لا عن صعيد الماورائية : « عندما نحترم الله ، أو الشمس ، أو النار ، فانا نحترم مباشرة التعبير عن العظمة أو القوة ، إذا ، الحدث طاقة نفسية ، هي الطاقة المثيرة » .

ومكذا فإن الشهوة لا تتناول مباشرة الفريضة الجنسية ؛  
إنها في الذات « لامبالية » ، لأنها تشير فقط الى « نزعة نحو » .  
لذلك ، إذا ولدت الطاقة صورتها ذاتها ، فيبدو ثابتاً « ان ميزة  
الوسيط رغم الطاقة على أن تأخذ شكلاً معيناً » . وقد أعطي  
مثلان على هذا الموضوع . فهناك من استخلص من الشمس فكرة  
الله ، وهناك آخرون نسبوا الى الألوهية اعطاء الشمس قيمة  
إلهية . فواحد يعطي الأفضلية لـ « فعالية التسبب البيئي » ،  
والآخر يتعلق بـ « تلقائية الحادث النفسي » . وقد أوجز يونغ  
قائلاً : ... « في عُرْفِي ، ان الطاقة النفسية ، الطاقة المثيرة ،  
هي التي تخلق صورة الألوهية ، مستخدمة نماذج مثل ، وبالتالي  
فإن الانسان يؤدي تكريماً إلهياً للشكل النفسي العامل فيه » .  
ومكذا فإن هذه الصورة تخص الرجل بصورة لا يمكن  
التكسر لها . الله في الانسان والانسان في الله . وقد سبق  
لأوغسطينس أن قال : « انزل الى ذاتك ، وادخل غرفة قلبك  
السرية . واذا كنت بعيداً عن ذاتك ، فكيف تكون قريباً  
من الله ؟ »

ان هذه الصورة الالهية الموجودة في كل الشعوب ، يرى  
يونغ ان يمثلها مثل « صورة نفسية » ومركب تعبيرى من  
طبيعة النموذج الأمثل قد وحدته الايمان مع طيف ماورائى «

من هذه الزاوية المعينة يمكن اعتبار الإله في الإنسان على الصعيد النفسي، وهكذا يصير موضوعاً علمياً، كما أن العلم يمكن أن يدرس الوجود النفسي. ووجهة نظر كهذه لا تنسب لا إلى اللاهوت، ولا إلى الماورائيات. من هذا النحو نجد تأكيداً لبازيل دي سيزاريه، يقول: «الإنسان مخلوق تلقى أمراً بأن يصير إلهاً».

### الإنسان عالم مصغر

«اعرف نفسك بنفسك»، فتعرف الكون». هذه الحقيقة البدئية تجد، هنا، معناها الكامل. وإذا تتبعنا الفكرة التقليدية الشرقية أو الغربية، فإننا نجد، كما سبق فقلنا، عالمين: عالماً منظوراً وعالماً غير منظور. وأفلاطون يعتبر العالم المنظور، وقاعدته، لأن كل شيء له نموذج هو نسخة عنه. وهذه العوالم ليست متعارضة يناقض أحدهما عالماً آخر، ولكنها مختلفة: فواحد دائم ولا يستطيع أن يتغير، وآخر لم يكن قط، ولكنه، على كل حال مستمر الولادة. والعالم الأبدى صورة عن العالم المنظور، وهو متحد بعالم الأفكار، وعالم آخر خاضع لتغير أبدي، يعبر عن المادة. وقد تبين لأفلاطون، على هذا الأساس، أن للعالم نفساً وجسداً.

ولقد نقل ماكروب في « تفسير حلم سيبون » ، رأي الفيزيائيين الذي أسنى العالم رجلاً كبيراً ، بالاستناد الى المعادلات القائمة بين الجسم والعالم المادي ، وبين النفس والكائنات الروحية . وكذلك نيميسوس ديميز يقدم منطقاً استطرادياً يتناول النظريات الباحثة في العالم المصغر ، والكون المصغر في كتابه الناظر في « طبيعة الانسان » ، كما ان كلاديوس مامير ، في مؤلفه المتناول « حالات النفس » لها نحوه . ومثلها فعل ايزيدور دي سيفيل إذ أعلن آراءه في فلسفة هذا الموضوع في كتابه « في الطبيعة » . . . وقد استخدم فلاسفة القرون الوسطى ولاهوتيوها ، بميل خاص ، المواضيع التي كانت ، في حد ذاتها ، تنزع الى وحدة العالم ، لم يعطوا مثله لإثبات صحة تلك المواضيع . وليس لدينا مجال لإطالة الكلام على هذه النظريات المختلفة ، إذ المهم أن نحتفظ منها بالنتائج .

عالم مصغر وكون مصغر يمثلان مستويين يشبهان درجتين ينبغي ان تتجاوزهما في نهج مطرد . فاذا كان كل انسان عالماً مصغراً ، فانه يتناسب وصعيداً مختلفاً عن مثاله الالهي . ولكي نفهم هذا يجب أن نتذكر عبارة هرميس تريسميجيست المشهورة : « كل ما هو تحت مشابه ما هو فوق . وكل عالم يقدم حقيقته . وكل عالم يسكنه حضور متفاوتو النسبة في روحيتهم .

فيقدر ما يرتفع مستوى إنسان ، بقدر ما يستطيع الاطمئنان  
الى عالم أعلى يتجاوب وإياه ، ويأخذ في حوار معه . وما يجب  
ان نحفظه هو ان الجسم يملك صورته ، والنفس أيضاً تملك  
صورتها ، وان هذه الصور جنية وانها ذات علاقة بالعالم الحي .  
وبيقظة وعي الذات يدخل الانسان في علاقة مع الصورة  
الموجودة فيه كحضرة . وفي اللحظة نفسها التي يحدث فيها  
التماس يقبض الانسان ، الذي هو مكان الحدوث ، على وضعه :  
فهو وضع مبهم ، ومثير ، وممزق . عندئذ يفهم أنه ينتسب  
الى قسم مما تؤكد له الصورة التي فيه . وفي حالة انفصاله عن  
هذه الصورة ، وارتمائه خارجها ، فإنه يغدو منفيًا ، وغريبًا ،  
وقاعسًا : فهو يعاني شعوراً بازدواجية في انسانيته ، ولا يستطيع  
ان يستعيد أصالته ، ويسترد وحدته إلا في حالة اتصاله بجزئه  
الأصلي . وهكذا يتضح ان معرفة الذات تبدو كعودة ناتجة عن  
نوجته صحيح . وما ان تباعد النفس عن هذه المعرفة حتى تجد  
أنها ناتجة في « منطقة المفارقة » . وهذه العودة تشير الى طريق  
طويل ، مشتمل على مراحل كثيرة العدد . وبين كتاب  
القرون الوسطى من تكلموا بصورة رائعة ، على موضوع  
« اسقراطية المسيحية » على حد قول آتيان جيلسون ثم تطرقوا  
الى العلاقات بين العالم المصغر والكون المصغر .

ونيقولا بيردييف عرض فكرته التي تتناول العالم المصغر  
والكون المصغر في مؤلفه « معنى الخلق » . ففي نظره ان  
ضمير الانسان ، بوصفه الوسط العالمي ، فانه يحمل في ذاته  
طاقة العالم ، اذن ، فالمعرفة يبتدىء ظهورها انطلاقاً من  
الداخل . ولكن الانسان لا يتمثل كجزء محدود من العالم ،  
ولا يعتبر جزءاً جدياً صغيراً منه . فهو ، في مفردده ، عالم في جمده ،  
فضائي بطبيعته ، ووسط كوني . والطريق الوحيد المؤدي الى  
المعرفة الكونية موصول ، إذأ ، بمعرفة الذات . فالانسان  
يستطيع ان يخترق القوانين الكونية ، لأنه هو نفسه عالم صغير  
جداً . وقوة الكون الكبير الخالقة على اتصال بقوة الكون  
الصغير ، وهذا الاتصال يحدث ما سماه بيردييف « بجرى من  
الداخل الى الخارج » و « بجرى من الخارج الى الداخل » ،  
وهذان الكونان يتلاقيان ويتجاهايان « زوجين » ، وليس كعملاق  
يلتقي أو يجابه قزماً . ولقد بقي بيردييف أميناً على فكرة  
يعقوب بوهيم في ما يتعلق بالأرضي والساوي مختلطين في شخص  
واحد ، جاعلين من الانسان محطّ تناقض وتضادٍ بين فلسفتين .  
وهذان العنصران هما من الشخص الانساني مصدر سعاده  
وعزله الخلقية الموحشة ، وتمزقه بين الأبد والزمان . ولكن  
هذا الموضوع تمكن مواجهته بصورة أخرى ، تحدث عنها شيلنغ

فجعلها شيئاً من الانتروبولوجيا مثقلاً بحمل مرهق من الطبيعة ،  
بينما كانت لغورباخ نظرة تتناول الناحية الدينية . ودراسة  
الانسان ، في نظر بيردييف ، لا تتوفر موصلة الى غايتها إلا في  
حالة انعتاق دارسها من ثقل العالم المادي الذي يوزحه ، وعندئذ  
فقط يستطيع أن ينظر في جماله وعظمته . ولذلك قال :  
المتصوفة وحدهم قادرون على أن يقبضوا على الانسان وأن  
يكشفوا من خلاله تركيب هذا العالم ، وبهذا الاكتشاف يصبح  
ممكناً فهم تعددية الشرط الانساني ، وفالمركب البشري يحتوي  
في داخله كل الأصعدة الكونية ، حاضناً في ذاته كل الحياة  
الكونية .

والانسان ، من خلال واقعه هذا ، يقوم بوظيفة جسر ،  
ووسيط . فالانسان العارف ، يتمركزه في ذاته يكون قد  
تمركز في وسط كل كائن ، وعلى كل أصعدة الكائن ؛ وهكذا لا  
يكون في حاجة للانتقال الى الغير<sup>١</sup> ، أو لأن يضع نفسه في  
مكانه ليفهمه ويحبه : فهو الآخر . لذا فهو ليس خارجاً عما  
يشاهد ؛ فهو غابة ، وساقية ، وعصفور . إنه الغير : أي  
الرجل الذي يصادف ، أو الرجل الذي يجهل والذي لم تقع

---

(١) إقرأ ، لدى منشورات عويدات كتاب معرفة الغير - سلسلة  
زهدني علماً .



عيناها قط عليه . من هنا ينشأ التغير في علاقته بالغير ؛ محبته ليست متأثرة بملكية . وهكذا تكون المحبة ابنة كل أسباب الحياة ، والفقر ، فالإنسان الذي حقق معرفة ذاته يصبح معدماً ، دون مأوى ؛ يحيا في الهواء الطلق ، ويقف أمام أبواب البيوت وفي الطرقات ؛ يكمن لكل ما هو جميل وجيد ، فيكتشف بصورة لا تعرف الملل ، الجمال والجودة . وهو للغير ملجأ ، وصخرة في متاعه ، وشمس في نوره .

### لمحة عن رموز الذات

لقد رأينا ان اللغة الرمزية ، وحدها قادرة على إيضاح تجرية معرفة الذات . وفي هذا الصدد سنرى ان دراسة الرموز كشف توضيحي .

قبل أن نتناول رموز الذات ، فلنبدأ بامتحان الرموز حول الذات ، وهذا ما يتناول التقرب من الذات لقد صنعت لنا الفرصة فتكلمنا على الداخل والخارج ، و«هنا» ، «هنا» ، أن نواجه هذه المبادئ على صعيد رمزي . فالتعابير «خارج» و «داخل» وما في الخارج وما في الداخل ، هي تعابير لها مغزاها ، لأنها تعين المميز الأسمي بين الناس . فالذين لا يعيشون إلا في الخارج ، يعني على القسم الخارجي من ذواتهم ، فهم مأخوذون

بطقوس سطحية ومقيدون بها خرقياً . وهم لجهلهم الفكر  
ينتشرون ، ويتقسمون ، ويضيعون بين واقع الحقيقة وخيال  
الوهم . فإنسان الداخل أو الانسان الداخلي ، عندما يترك  
المستوى السفلي ، مستوى الخارجية ، فإنه يقف عند باب ذاته  
في حالة يقظة وتنبه .

إن مبادئ من فوق ومن تحت ، التي نجدتها في الكتابات  
المبهمة ، فيها معنى الداخل والخارج . فالفوق يتجاوب والداخل ،  
وهذا الداخل يعني العمق . والتحت هو الخارج ، والخارجية .  
وهذان البعدان يبدوان أساسيين ؛ فالانسياق من الخارجية الى  
الداخلية يقتضي حركة ، وسفراً . والفوق هو علامة قيمة ؛  
والانسياق نحو الفوق ، واجتياز مختلف درجات تكلم عليها  
اقلاطون في « المأدبة » ، هو عمل صعودي ، اجتاز به مختلف  
الدرجات التي تفصل التحت عن الفوق : وذروة هذا الفوق  
قطابق المطلق الذي نسمى الى بلوغه . والانسان ، كما رأينا في  
ما تقدم ، سماء وأرض في وقت واحد ، إذا ، ففي مختلف  
التقاليد ، والطقوس والطقسيات ، ترى ان الأرض والسما  
مربوطتان بسلم كونية ، تبدو كل درجة منها وكأنها عالم  
وسيط ؛ والأرض والسما تحتلان أيضاً مدرجاً يصل ما بينهما .  
فعلى الصعيد الرمزي ، تبدو السلم الواصلة الأرض بالسما قائمة

في « وسط » العالم ، وكأنها أثر حزام مطوق يتفجّر الخلق منه . ولكي يصل الانسان ، في ذاته ، سماءه بأرضه ، يجب أن يهتدي الى مركزه (وسطه) لكي ينصب عليه سلّمه . ولنتذكر ان السلّم ، على الصعيد الطقسي الديني والرمزي يمكن أن تتمثل بجبل ، أو بشجرة ، أو بعضاً بسيطة . أما صورته الفضلى ، فتتمثل بجبل . ونحن نجد معنى مماثلاً للجبل أو السلّم ، مع سلّم يعقوب الذي سبق فرسم شكل الصليب ، معتبراً كمكان صعود ، نمثلاً بسلّم وجبل معاً .

وقد عُرف كثير من الرموز معتبراً عن الذات . وبين أكثر تلك الرموز أهمية رمز المملكة ؛ « مملكة السموات » التي تعتبر عن حالة داخلية تتجاوب تماماً وذات الانسان . وفي الجبل لوقا ( ١٧ ، ٢١ ) ، نقرأ : « مملكة السموات هي في داخلكم » ، وهذا المبدأ التوراتي نعثر عليه في كل التقاليد المأثورة عن مصر ، وعن الهند ، وعن الصين ، وعن الفكر العبراني أو المسلم . وقد جاء في سفر الظهور ( الخروج ) ان القدوس ، ليتقدس اسمه ، بعد أن خلق الانسان ، طبع فيه صورة المملكة المقدسة وهذه الصورة تملك معنى الكل .

المملكة هي في الداخل ، كما هي في الخارج ، في المركز الوسط وفي الخط الدائري ( المحيط ) ؛ نوع من النقطة الحية ،

يوجد هناك حيث الحياة في القلب بمقدار ما هي في مركز الطاقة ،  
وفي الخارج حيث القلب يتحول بها الى الخارج . وفي هذا المعنى  
نصّ في انجيل توما يقول محدّداً ملكوت السموات : ملكوت  
السموات ليس في السماء الخارجية . فإذا كان الذين يقودونكم  
يقولون لكم : ها هي ، المملكة في السماء ! عندئذ طيور السماء  
تتقدمكم ... ولكن مملكة السموات هي في داخلكم ، وهي  
أيضاً في خارجكم .

اللؤلؤة هي أيضاً صورة عن الذات . ويمكن تفسير رمزها  
في مقارنة بين الباحث عن اللؤلؤ ، الذي يغطس في البحر مع  
وجوب تجنبه المسوخ البحرية ، وبين المتعرّف ذاته ، ذاهباً الى  
البحث عن نفسه . ويمكن تشبيه اللؤلؤة بـ «المخلص الناجي» ،  
وهذه هي الظاهرة العجيبة .

أما الرمز الأكثر نموذجية عن الذات ، فهو الشمس .  
والانسان المتميّز عن الغير بقدرته وقيمته يحمل تاجاً شمسياً ،  
سواء أكان التاج مفروزاً بالنقود الرومانية ، عندما كان القيصرية  
يُشبهون بالشمس الطالعة ، أم مستديراً كالهالة الوضوءة تحيط  
برأس القديس ، أم كستديرة شعر المسام كاهناً حديثاً . والطاقة  
المحرزة بالتقاء الانسان بذاته هي طاقة شمسية ؛ فالشمس ،  
والإله ، والنار هي مرادفات ميتولوجية فيها معنى الضوء ،

والحرارة ، والجُصْب . وقد لاحظ يونغ في ديانة الميتران ان  
الألوهة في الطقوس الدينية القديمة كانت تتمثل في داخليتها شمساً  
ونوراً . وكذلك موضوع « الشعور الأبدي » شمسي ، إذأ ،  
الذات هي هذا «الولد الأبدي» هذا الولد الإلهي الذي يكتشفه  
الانسان في داخله . وفي هذا الصدد ، فإن رمز الأم الإلهية تعين  
في «الأرض السعيدة» ، فماذا يصير الانسان في هيئته المتجددة ،  
عندما يجد في داخله شمسه ، يعني كنزه . ولكن هذه الشمس  
هي أيضاً عبء ، فالانسان يحمل ثقل ذاته . وعندما حمل ميتران  
ثوراً على ظهره ، أو عندما حمل المسيح صليبه ، فهذا يمثل دائماً  
حمل الذات المتمثل أيضاً في دولاب الشمس ، والدولاب أو  
الصليب يملك كل منها معنى مماثلاً . فالشمس هي وجه إله  
الانسان - الشمس ، الذي سبق فالتخذ رمز التأليه .

## خلاصة

ان موضوع معرفة الذات يوضع ، في الغالب ، في موضع  
المفوية لا في صنف السيكولوجية أو التاريخية . وهو ذو صفة  
تغلب عليها الماورائية ، في حالة انفلات الماورائية من التعبير  
العقائدي الفلسفي .

ومعرفة الذات معيناً لا ينضب أبداً ؛ فهي دائماً موضع متابعة بحث وإعادة نظر . ولهذا فإنها تبدو كأنها غائبة الانسان . وهذه الغائبة يجب أن تفهمها بالمعنى الذي اعتمده هيدغر إذ قال انها زلزلة وحدة معرفة للتوقعية غير أنها قادرة على استعادة خلقها بصورة لا تعرف الملل .

والانسان الذي يحقق معرفة ذاته يصبح خالق نفسه ؛ ويكون قد دخل الى قلب إنسانه ، بعد أن تغلب على وحشيته ، فأدرك قرارة مصدره الذي هو ينبوع من نور .

ويظل الانسان يبحث عن شمس في الخارج ما لم يعثر عليها في داخله ؛ فإن استطاع أن يتمركز في وسطه الشخصي ، فهو ذا هو مناراً ومنيراً ، مالك شمس في الداخل . وما هو يستحق أن يلقب بالحكيم ، وبالرجل الحيّ أو بالرجل النوراني . وفي الزمن الذي كانت فيه كلمة « حكمة » لا تثير شيئاً ، ظلت مبادئ الحياة والنور محتفظة بثقلها النوعي ، وتلك المبادئ هي الجديرة بالبقاء .

إن معرفة الذات ، ولادة تتم في عالمها الخاص ، وتحت إطلالة شمسها الخاصة . والانسان الذي يعرف نفسه هو ، وحده ، الانسان الحيّ .

## فهرس

٧	مقدمة الطبعة الثانية
١٢	تمهيد
١٩	الفصل الأول . - الاستفهام وجوابه
٢١	- التباهاة ، الصفاء وحبّ النور غير المشروط
٢٨	- المعرفة والعلم
٣٢	- معنى رحة الانسان
٤٣	- الأنا والأنيات
٤٨	- طرائق وتقنيات
٥٨	- المربي الروحي
٧٠	- المدارس ودورها
٧٩	- الجواجز السابقة للدعوة
٨٧	- الحالة الداخلية والحالة الخارجية
٩٨	- البعد الجديد
١٠٢	الفصل الثاني . - اكتشاف ينبوع الحياة
١١٦	- تجربة طالب المعرفة
١٢٣	- الجمال والحب

- ١٣٠ - الحجم الكوني والوحدة
- ١٣٩ - التطهير والوصول الى السموات
- ١٤٧ - التغيير والتميز
- ١٥٢ - هل الانسان الراعي ذاته ، انسان متفوق ؟
- ١٥٧ - الانسان إله مصغر
- ١٦٠ - الانسان عالم مصغر
- ١٧٥ - لحة عن رموز الذات

خلاصة

١٧٩





**Marie - Madeleine DAVY**

**LA CONNAISSANCE  
DE SOI**

**Traduction Arabe**

**de**

**Nassim NASR**

**EDITIONS OUEIDAT  
Beyrouth - Paris**



يوم قال سقراط : « إعرف نفسك » ، كرّس دعوة الإنسان إلى السفر في أعماق نفسه ، يرتادها ، يكتشفها ، ويعود منها بحصيلة الحياة الانسانية منذ فجر التاريخ . من هنا ، راح الفلاسفة ، بعد سقراط ، يعالجون هذه الرحلة إلى داخل « الأنا » واجدين فيها تارة مجاهل لا إلى غوص ، وطوراً اتساعات بشرية مشحونة بالتجربة التي عمرها آلاف السنين .

وإنه إبحار ، ولا أروع ، إلى « الأنا » التي نظنها قينا ، معنا ، قريبة منا ، فيما نكتشف ، عند البحث عنها ، أنها عنّا بعيدة ، وأنّ بيلنا وبينها طريقاً غير سهل ، يازمنا ، لاجتيازه ، كشف القناع عن نفسنا ، ومخاطبتها دون بُعد .

في هذا الكتاب ، عالجت ماري مادلين داني مراحل الغوص إلى الذات ، واكتناها بالطرق الأسلم والأقصر . وهي الخبرة في الموضوع ، بحثاً وممارسة وإطلاعاً ، لذا ، جاء توسيعها للموضوع ، لا دون اقتضاب ، عملاً أ رصيناً ، يختصر في بضع من صفحات ، خلاصة جاء في الدراسات الموسوعية .

« إعرف نفسك » ؟ قد لا تعود هي وحدها البانت نصفها . يبقى النصف الآخر ، ولعله الأهم بعد اكتشاف « الأنا » ، إنه : « كن نفسك » .

Edimtheq - Alexandria



0351311

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)